محمد رضا الشبيبي

رحلة في بادية السماوة

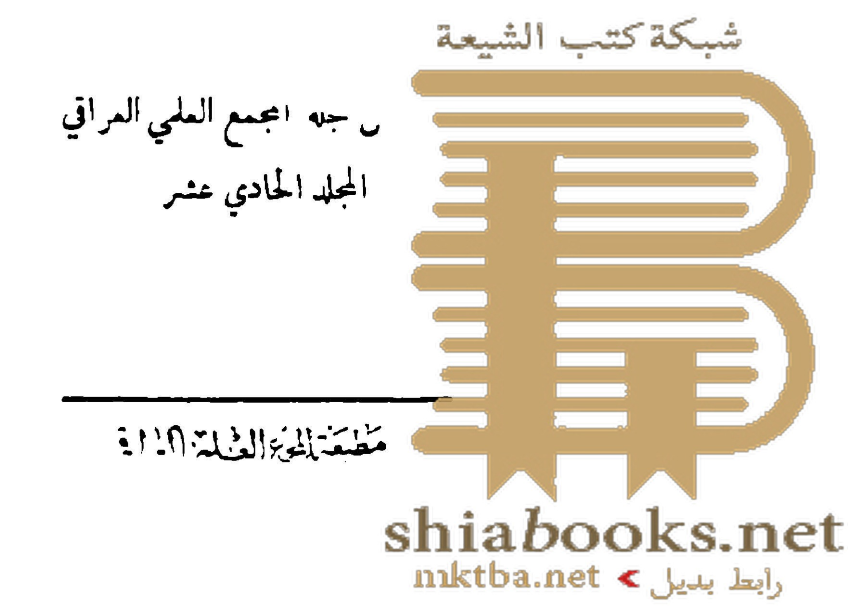
سنة ١٣٣٩ هـ — ١٩٢٠ م

المرحلة العربية هي الاساس ، مآخذ من اقوال البادية ، الرجوع الى الفطرة ، رياضة الابدان ، الشجرة البرية ، السماوة في كتب التاريخ ، السماوة في كتب البلدان والانساب ، حدود البادية ، التعريف بالمفازة ، قحط السماوة ، طبيعة البادية ، التكوين الطبيعي ، السماوة من ميادين الكفاح ، في معرض المقارنة ، اشهر رواد السماوة ، قبيلة كلب في السماوة ، دولة كلب ، مراحل السفر في السماوة ، عدد المراحل ، بين دمشق وارياف الفرات

محمد رضا الشبيبي

رحلة في بادية السماوة

سنة ١٣٣٩ هـ — ١٩٢٠ م



من مجلة المجمع العلمي العراقي
المجلد الحادي عشر

مطبعة المجمع العلمي ١٩٦٤

المقدمـــة

بسم الله الرحمن الرحيم

تيسّر لكاتب هذه الكلمة قبل أكثر من أربعين عاماً القيام برحلة بعيدة المدى قطع خلالها مفازتين كبيرتين من مفاوز البلاد العربية ، قطع المفازة الأولى من الشرق إلى الغرب أو من بادية البصرة إلى مدينة « حائل » في نجد ثم إلى المدينة المنورة في الحجاز ماراً ببقاع وسهول وجبال وقبائل شتى في مراحل تعد سبعاً وعشرين مرحلة . وقطع المفازة الثانية من الغرب إلى الشرق أو من بادية الشام التي تعرف بالسماوة إلى ضفاف نهر الفرات في مراحل تعد ستاً وعشرين مرحلة ماراً بفلوات موحشة وبوادي شاسعة . ولما كانت ماجريات هذه الرحلة الثانية مضبوطة أو محفوظة أكثر من الأولى قدمناها في النشر على تلك الرحلة النجدية راجين ان يجد فيها الناظر شيئاً من المتعة والفائدة .

المرحلة العربية هي الأساس

هذا وقد اتخذنا المرحلة العربية ـ وهي مسيرة يوم ـ أساساً لحساب المسافات إذ لم تكن معنا عدادات ولا مقاييس علمية ولا مزاول متقنة الى غير ذلك مما يتأهب به الرحالون المحدثون لا سيما اذا كانت الرحلات بعيدة .

مآخذ من أقوال أهل البادية

ولم تتعد مآخذنا عن اسماء المنازل والمناهل والبوادي والقبائل أقوال أدلائنا وخفرا

قافلتنا من البدو أحياناً إذ كان لنا اكثر من خفير بدوي نتخفر به لان هناك أكثر من قبيلة بدوية تجوب هـذه البادية اما للغزو أو لانتجاع المرعى . واقوال رفقائنا من هؤلاء البدو عن المنازل والمناهل والسهول والجبال الى غير ذلك من جملة مضامين هـذه الرحلة . ولا شك في ارتجال المتأخرين أو المعاصرين من أهل البادية لـكثير من هـذه الأسماء مع ان لمسمياتها أسماء عربية قديمة لا يصعب العثور عليها في كتب البلدان . وإلى جهل القوم بتأريخهم وماضي بلادهم مرد هذا الضرب من الارتجال والافتعال .

الرجوع الى الفطرة

سلخنا في هذه الرحلة من بادية الشام الى بادية العراق مدة ناهزت شهراً او كادت كنا نعيش فيها على الفطرة أو كما كانت تعيش قبائلها قبل الفي سنة . نفترش بساطاً ذهبياً من الرمال و نلتحف غطاءً شفافاً من الفضاء . ويفغم انوفنا نسيم البادية العليل. ولم نشعر بحاجة الى خباء أو مظلة لا في النهار ولا في الليل أنا ورفيق لي من ابناء الـكرخ في بغداد . وكنا نتبلغ من زاد تزودنا به من دمشق قوامه صنوف من الفاكهة المجففة والاغذية المستحضرة.

رياضة الابراد

ولم تكن لنا مراكب في هـذه الرحلة غير الابل النجيبة . واذا شبهوا البادية العربية بالبحر من حيث سعتها ومخاوفها واخطارها فان سفن النجاة فيها لا تعدو جمالهم ورواحلهم المذكورة . ولذلك قالوا : « الجمال سفن الصحراء » وللجمال مميزات طبيعية لا توجـد في غيرها من الحيوان من صبر على الظمأ وقوة وجلد الى قلة في الـكلفـة والى خطى متزنة هادئة في المسير ، فلا صخب ولا جلبة في قافلة تستخدم فيها النجائب العربية .

الشجرة البرية

ومع ذلك بقينا في نظر فريق من هؤلاء البدو الخلص مضافاً الى من لقيناهم في البادية من

بين بطون قضاعة ، قال النخار العذري ـ وهو خبير في الانساب ـ وقد سأله معاوية عن « قضاعة » : كلب ســاداتها وأوتادها ، والقين فرسانها واسنّتها ، وعذرة شعراؤها وفتيانها [1] وتحدث النسابون والاخباريون كثيراً عن حلف كلب وتميم ، وللشعراء في هذا الحلف أقوال ، قال جرير :

تميم إلى كلب ، وكلب اليهم احق وأولى من صداء وحميرا

وقال الفرزدق : من قصيدة يهجو فيها الأخطل : [2] .

أشـد حبال بين حيين مِرّةً حبال أمرّت من تميم ومن كلب [3]

كلب ودعوة الاسلام :

كانت بطون كلب في مقدمة قبائل العرب التي أدركت ما في دعوة الاسلام من عناصر الحق والخير فآمنت بها فور التبليغ ، واشتهر عدد من الصحابة المنتسبين اليهـا ، منهم « دحية الكلبي » ساقوا نسبه إلى « كلب بن وبرة » شهد مع الرسول « ص » أحداً وغيرها من المشاهد ، وهو الذي بعث رسولا إلى قيصر سنة ست من الهجرة ، وكان دحية الكلبي مضرب الأمثال في جمال الصورة ، وكان وفد قبيلته في طليعة وفود القبائل على النبي «ص» وعلى رأسهم قطن بن حارثة العليمي الكلبي فسأل الدعاء له ولقومه ، وقطن هذا هو الذي حمل إلى كلب واحلافها احـدى رسائل النبي « ص » التي تعدُّ آية في البلاغة ، وفيما اشتملت عليه من الاوابد والشوارد [4] وقد تحدثت عنها كتب السير والأدب

---

(١) ذيل امالي القالي ص ٧٠ .

(٢) أنظر القصيدة في ديوان جرير «مطبعة الصاوي بالقاهرة» وفي نسخة الديوان كلة « نزار » بدل « تميم » .

(٣) طبقات الشعراء للجمحي ط بريل ص ٨١ .

(٤) يراجع عن وفد كلب هذا وعن رسالة الرسول الى كلب مع قطن بن حارث العليمي التي تضمنت ما تضمنت من الغريب ، كتاب العقد الفريد ج ١ ص ٢٧٥ — ٢٧٠ .

والتاريخ [1] . وقـــد بلغت صلة دحية بن خليفة الكلبي من الوثاقة بالرسول انه تزوج عمته درة وهذا يعني صلة تلك القبيلة نفسها به .

هذا وما اكثر عدد الاخباريين والنسابين وعلماء الأدب واللغة الذين عنوا بالبحث عن « كلب » ، فهذا ابن دريد ، أفرد في كتاب الاشتقاق بحثاً لغوياً ممتعاً شرح فيه أسماء الأعلام الواردة في نسب هذه القبيلة واشتقاقها حتى اسم قضاعة [2] .

---

(١) راجع عن نص هذه الرسالة كتاب العقد الفريد لابن عبد ربه . ١/٢٧٥ والاستيعاب لابن عبد البر ج ٢/٥٣٦ ط حيدر اباد .

وقد وجه النبي (ص) كتباً غير قليلة الى زعماء العجم والعرب في معنى الدعوة الى الاسلام وتعد هذه الكتب مثلاً اعلى في البيان وآية في البلاغة ، وردت هذه الكتب في اسفار السيرة كسيرة ابن هشام وسيرة ابن اسحاق وفي كتب التاريخ ومن ذلك كتابه الى المنذر عامل البحرين من قبل الفرس بعد اسلامه ، وكتابه الى فروة بن عمر الجذامي ، اورده ابن الجوزي في كتاب «الوفاء» ، وكتاب آخر الى طهفه النهري وقومه تجد نصه في المثل السائر لابن الاثير ، ويتضمن هذا الكتاب طرفاً من الغريب ، وقد عني بعض المؤرخين بشرح غريبه المذكور .

ومن اشهر كتبه (ص) كتاب الى اكيدر صاحب دومةالجندلذكره ابو عبيدة ، وهذا الكتاب يتضمن كذلك جملة من الغريب تحتاج الى الشرح عني بشرحه بعض المؤلفين .

وكتابه الى وائل بن حجر ، واهل حضرموت ، ذكره القاضي عياض في الشفاء ، وهو من الكتب التي عني المؤرخون والمؤلفون بشرحها لاشتمالها على الغريب وغريب الغريب .

وكتابه الى قبيلة همذان من اليمن ورد في سيرة ابن هشام وذكره ايضاً القاضي عياض في الشفاء .

اما كتبه (ص) الى غير المسلمين فانها معروفة ومنها كتابه الى كسرى ابرويز ، وكتـابه الى المقوقس صاحب مصر ذكره ابن عبد الحكم في تاريخه ، وكتابه الى النجاشي ملك الحبشـة ورد في سيرة ابن اسحاق ، وكتابه الى هوذة بن علي صاحب اليمامة ، وكتابه الى نصارى نجران ، وكتابه الى ملوك عمان والبحرين الى غير ذلك من الكتب التي وجه بها الى الرؤساء والملوك غيرالمسلمين كجبلة بن الايهم الغساني وذي الكلاع الحميري . تراجع عنها كتب التاريخ والسير ومنها سيرة ابن اسحاق ، وسيرة ابن هشام ، والعقد الفريد ، وصبح الاعشى من ص ٣٦٥ — ٣٨٢ الجزء السادس .

(٢) راجع الصفحات الآتية من كتاب الاشتقاق لابن دريد ٢٠ ، ١٨٠ ، ٢٨٤ ، ٥٣٢ ، ٥٤٠ ، ٥٤٢ ، ٥٦٠ .

الاعراب لغزاً غامضاً لا حل له . ملامح غير مألوفة لرفاقنا في الاشكال والالوان . ولا يكتمك بعض القوم زرايتهم على ثقل خطانا وبطء حركاتنا ومظاهر الترهل في ابداننا . وطالما جوبه الحضر المستضعفون من اهل القافلة بهذه العبارة : « ما اثقلكم على وجه الأرض » وقد لاحظنا أن البدويات من نساء القوم اكثر رشاقة واخف حركة واعظم جلداً وصبراً من رجالنا المنغمسين في اسباب الحضارة . ولا عجب فالشجرة البرية أصلب عوداً وابطأ خموداً كما قال الامام علي عليه السلام ، ومما لاحظناه أثناء الرحلة عجز الحضر أو المترفين من صحبنا عن اعداد رواحلهم للركوب أو النزول . ولم يكن لهم بد من بدوي يساعدهم على ذلك ، أضف الى ذلك أن شعار البدويات في القافلة كان لا يعدو الاعتماد على النفس في اعداد رواحلهن واخضاعها للركوب والنزول بحذق ومهارة ، ولولا أن ركائب الحضر المترفين في القافلة كانت تندفع بغريزتها أو بدربتها على المسير في الجادة لا تحيد عنها لوقع القوم في اخطار كثيرة .

وفيما يلي فصول من كتب التاريخ والبلدان والأنساب وغيرها ورد فيها ذكر لبادية السماوة .

١ — كتاب فتوح الشام المنسوب الى الواقدي [1]

لا بد لمن يعنى بدراسة هذا الكتاب من أن يساوره شك قوي في نسبته الى الواقدي المؤلف المشهور في السير والتاريخ . فالكتاب لا يخلو من قصص محدثه متأخرة يشهد بذلك الاسلوب المتبع في تأليفها وكتابتها وهو اسلوب ضعيف متأخر يختلف عن اسلوب الواقدي وطبقته من المؤلفين في باب السير والتواريخ . وفي تضاعيف الكتاب اضطراب غير قليل ، وعلى أي حال فان كتاب فتوح الشام المنسوب الى الواقدي يشتمل على فصل ضاف

(١) فتوح الشام المنسوب الى الواقدي طبع الهند (كلكتة) (١٨٧٤) راجع الصفحات الآتية من الكتاب ٤٠ ، ٤١ ، [illegible] .

عن عبور خالد بن الوليد طريق السماوة جاء فيه ما يلي :

« لما وصل خالد الى أرض السماوة قال : أيها الناس ان هذه الأرض لا تدخل إلا بالتزود بالماء الكثير لأنها قليلة الماء ونحن في جيش ، هذا وفي هذه الرواية بعد ذلك تفصيل لما أشار به أو قام به رافع الطائي دليل البادية ، وكان طريقهم من عين التمر الى البادية .

٢ — فتوح البلدان للبلاذري :

دومة الجندل : تضمن هذا الفصل من فتوح البلدان للبلاذري بعثة خالد بن الوليد المخزومي إلى أكيدر بن عبد الملك الكندي ثم السكوني بدومة الجندل ، وأخذه — أي أكيدر — وقتل أخيه وسلبه قباء ديباج منسوج بالذهب ، ومقدمه — أي خالد — بأكيدر على النبي حيث أسلم ، وكتبه له ولأهل دومة كتاباً ينوه باسلامه ، ويشتمل هذا الكتاب على بعض الأحكام المتعلقة بالزكاة و بعض الضرائب الشرعية الأخرى [1] .

ويلي ذلك حديث آخر أورده البلاذري يتضمن نقض أكيدر لعهده بعد وفاة النبي ﷺ وخروجه من دومة ، ولحاقه بالحيرة ، وبناءه فيها بناء سماه « دومة » باسم دومة الجندل .

ومما جاء في هذا الفصل أن خالداً — لما شخص من العراق يريد الشام — أصاب سبايا بدومة الجندل فكان في من سبي « ليلى بنت الجودي الغساني » وهي التي كان عبد الرحمن ابن أبي بكر هويها وقال فيها :

تذكرت ليلى و « السماوة » بيننا وما لابنة الجودي ليلى وما ليا [2]

فتوح السواد وشخوص خالد الى الشام : وعقد البلاذري فصلاً طويلاً بهذا العنوان أورد فيما أورد فيه توجه خالد بن الوليد الى العراق ، في خلافة أبي بكر ، وفتوحه في السواد [3] .

---

(١) فتوح البلدان ص ٦٨ طبعة مصر ١٣١٧ هـ .

(٢) المأخذ المذكور ص ٦٩ (٣) المصدر ذاته ص ٢٥٠ .

وجاء في فصل آخر من كتاب الفتوح المذكور أن خالداً ـ وهو في الحيرة ـ تلقى كتاباً من أبي بكر يأمره فيه بنجدة المسلمين في الشام ، فسار في ربيع الآخر سنة ثلاث عشرة في ٨٠٠ ويقال في ٦٠٠ ويقال في ٥٠٠ ، فأتى عين التمر ، ويقال ان كتاب أبي بكر وافاه وهو بعين التمر . وقاتل في طريقه جموعاً من العرب والعجم وفتح بلادهم وسبى وغنم — وكانت من السبايا أم حبيب الصهبــاء ، وهي أم عمر بن علي بن أبي طالب — ثم أغار خالد على « قراقر » — وهو ماء لـكلب — ثم فوّز منــه إلى « سوى » وهو ماء لـكلب أيضاً ومعهم فيه قوم من بهراء . وكان خالد لما ركب المفازة عمد إلى الرواحل فأرواها من الماء ، ثم قطع مشافرها وأجرّها لئـلا تجترّ فتعطش ، ثم استكثر من الماء وحمله معــه ، فنفد في طريقه فجعـل ينحر تلك الرواحل راحلة راحلة ، ويشرب وأصحابـه الماء من أكراشها . وكان له دليل يقال له . « رافع بن عمير الطائي » ففيه يقول الشاعر :

لله درّ رافع أنّى اهتــدى فوّز من قراقر إلى سوى

ماء إذا ما رامــه الجيش انثنى ما جازها قبلك من إنس يرى [1]

وفي هذا الفصل من كتاب الفتوح رواية للواقدي عن رحلة خالد هــذه التي اخترق فيها السماوة . ومن المياه والمواضع التي ورد ذكرها في هذه الرواية « اركة » أو « أرك » و « دومة الجندل » و « قصم » وفيها عرب من قضاعة ، ثم أتى تدمر فقاتله أهلها فظفر وغنم ، ثم أتى « حوارين » من « سنير » فأغار على مواشي أهلها فقاتلوه وقد جاءهم مدد أهل « بعلبك » وأهل « بصرى » وهي مدينة « حوران » ثم أتى « مرج راهط » فأغار على غسان في يوم فصحهم وهم نصـارى ، فسبى وقتل [2] . وسـنعود إلى تمحيص مختلف أقوالهم الواردة عن هذه الرحلة .

---

(١) رويت هذه الأبيات مغفلة غير منسوبة في كثير من المآخذ مضافاً الى اختلاف النصوص وانفرد البكري (في معجم ما استعجم ط باريس ص ٣٣٢) بنسبتها الى خالد بن الوليد نفسه على الصورة الآتية :

ضل ضلال رافع أنى اهتدى فوز من قراقر الى ســوى

خمساً اذا ما سارها الجيش بكى

ويراجع عن قصة خالد بن الوليد في مسيره من العراق الى الشام وعبوره مفازة السماوة : الكامل لابن الاثير ج ٢ ـ ط بولاق ص ١٥٦ ، ١٥٧ .

٣ — تاريخ الطبري : السماوة في سجع الكهانة

تضمّن الجزء الأول من تاريخ الطبري حديث طلب كسرى انوشروان الى النعمان بن المنذر ان يوافيه برجل عالم يسأله عما حدث ليلة ولد الرسول فوجّه اليه عبد المسيح بن عمرو بن حيّان بن بقيلة الغساني . ولما قدم عليه وجه اليه أسئلة ، على ان المسؤول المذكور ـ وهو عبد المسيح ـ أحاله على « سطيح » وهو ابن اخت لعبد المسيح . ومن اقوال سطيح التي وردت في رواية هذه القصة على اختلاف نصوصها ، قوله : « عبدالمسيح على جمل يسيح الى سطيح ، وقد أوفى على الضريح ، بعثك ملك بني ساسان ، لارتجاس الايوان ، وخمود النيران ، ورؤيا الموبذان ، رأى ابلا صعابا ، تقود خيلا عرابا ، وقد قطعت دجلة وانتشرت في بلادها . اذا كثرت التلاوة ، وبعث صاحب الهراوة ، وفاض وادي السماوة ، وغاضت بحيرة ساوة ، وخمدت نار فارس ، فليست الشام لسطيح شاماً [١] .

هروب آل المهلب من الحجاج عن طريق السماوة :

وفي تاريخ الطبري رواية عن هروب يزيد بن المهلب واخوته الذين كانوا معه من السجن ، ليلحقوا بسليمان بن عبد الملك مستجيرين به من الحجاج بن يوسف والوليد بن عبد الملك جاء فيها : « ولما دنا يزيد من البطائح من « موقوع » [٢] استقبلته الخيل قد هيئت له ولاخوته ، فخرجوا عليها ، ومعهم دليل لهم من كلب يقال له عبد الجبار بن يزيد الرّبعة فأخذ بهم على السماوة . وأتى الحجاج بعد يومين فقيل له : انما اخذ الرجل طريق الشام [٣] .

---

(١) تاريخ الرسل والملوك للطبري ج ١ ص ٩٨١ـ٣ « الطبعة الاوربية » .

(٢) موقوع هو ـ على ما في كتب البلدان ـ ماء بناحية البصرة ، قتل به أبو سعيد المثنى الخارجي العبدي خرج بهذا الموضع وقتله صاحب شرطة البصرة .

(٣) تاريخ الطبري « حوادث سنة ٩٠ هـ » .

خروج الوليد بن عبد الملك الى السماوة :

جاء في حديث رواه الطبري : « فقال له الأبرش سعيد بن الوليد الكلبي : ـ المقول له الوليد بن عبد الملك ـ يا أميرالمؤمنين ، تدمر حصينة ، وبها قومي، يمنعونك . فقال:ما أرىان نأتي تدمر وأهلها بنوعامر، وهم الذين خرجوا عليّ . ولكن دلني على منزل حصين فقال : أرى ان تنزل القرية . قال : اكرهها . فقال : فهذا الهزيم . قال : أكره اسمه . قال : فهذا البخراء [1] وقصرالنعمان بن بشير . قال : ويحك ما أقبح اسماء مياهكم . فأقبل في طريق السماوة وترك الريف [2] » .

عزل عامل اموي وعودته الى الشام بطريق السماوة :

جاء في سياق حديث آخرأورده الطبري عن عزل يزيد بن الوليد يوسف بن عمرعن العراق وتوليةمنصور بن جمهور مكانه : « فقال يوسف بن عمر لسليمان بن سليم بن كيسان الكلبي ـ حين أقرأه كتاب منصور بن جمهور : ما الرأي ؟ قال : ليس لك امام تقاتل معه ، ولا يقاتل اهل الشام الحارث بن العباس معك ، ولا آمن عليك منصور بن جمهور ان قدم عليك . وما الرأي إلا أن تلحق بشامك . قال : هو رأيي فكيف الحيلة ؟ قال : تظهر الطاعة ليزيد وتدعو له في خطبتك . فاذا قرب منصور وجهت معك من أثق به . ثم وجه معه من أخذ به طريق السماوة ، حتى صار الى البلقاء [3] » .

القرامطة في بادية السماوة

جاء فيحوادث سنة٢٨٩ منهذا التاريخ ما يأتي : « ذكر أن زكرويه بن مهرويه الذي ذكرنا أنهكان داعية قرمط لما تتابع منالمعتضد توجيه الجيوش الى من بسواد الكوفة من

---

(١) للبخراء ذكر في كتب البلدان قال ياقوت (٢ : ط مصر ص ٨٧) البخراء ممدودة كأنها تأنيث الأبخر وهو نتن الفم وهي كذلك ماءة منتنة على ميلين من القنيمة في طرف الحجاز هـذا ما قاله ياقوت ، ويلي ذلك قصة طريفة عن مقتل الوليد بن عبـد الملك في البخراء يحسن أن يقابل بما جاء في تاريخ الطبري عن الحادث المذكور .

(٢) تاريخ الطبري ج ٢ ص ١٧٩٦ « حوادث سنة ١٢٦ هـ » .

(٣) المآخذ نفسه ص ١٨٤٠ . من الطبعة الافرنجية .

القرامطة وألح في طلبهم ، وأثخن فيهم ورأى أنه لا مدفع عن أنفسهم عند أهل السواد ولا غناء سعى في استغواء من قرب من الكوفة من أعراب اسد وطيء وتميم وغيرهم من قبائل الأعراب ودعاهم الى رأيه وزعم لهم أن من بالسواد من القرامطة يطابقونهم على أمره ان استجابوا له ، فلم يستجيبوا له . وكانت جماعة من كلب تخفر الطريق على البرّ بالسماوة فيما بين الكوفة ودمشق على طريق تدمر وغيرها ، وتحمل — أي كلب — الرسل وأمتعة التجار على أبلها . فأرسل زكرويه أولاده اليهم ، فبايعوهم وخالطوهم وذكروا أنهم خائفون من السلطان وأنهم ملجوؤن اليهم فقبلوهم على ذلك . ثم دبوا فيهم بالدعاء الى رأي القرامطة . فلم يقبل ذلك أحد منهم أعني من الكلبيّين إلا الفخذ المعروف ببني القليص بن ضمضم بن عدي بن جناب ومواليهم خاصة ، فبايعوا في آخر سنة ٢٨٩ بناحية السماوة ابن زكرويه [1] المسمى بيحي والمكنى أبا القاسم ولقبوه (الشيخ) على أمر احتال فيه ولقب به نفسه » .

٥ — صفة جزيرة العرب :

قال الهمداني في الفصل الذي عقده بعنوان « مساكن من تشاءم من العرب » : « اما كلب فمساكنها السماوة ولا يخالط بطونها في السماوة أحد ، ومن كلب بأرض الغوطة : عامر بن الحُصَين بن عُليم ، وابن رباب المعقلي » . ثم من حوران في ديار كلب عن يمينك في السماوة ، ثم في الدهناء الى أن ترى نخل الفرات . ولا يخالط كلبا سواها » [2] .

وجاء في الفصل المذكور — أيضاً : « ثم تقع في نصارى وغير ذلك الى حدّ الفرات ، الى بالس في برّية خساف ، وهي من الدهناء . ومنها تخرج الى تدمر ذات اليمين ، وهي تدمر القديمة وهي جانب السماوة ، وما وقع في ديار كلب من القرى : تدمر وسلمية ، والعاصمية ، وحمص ، وهي حميرية . وخلفها مما يلي العراق : حماه ، وشيزر ، وكفرطاب لكنانة من

(١) تاريخ الطبري ج ٣ ص ٢٢١٧ — ٢٢١٨ .

(٢) صفة جزيرة العرب ص ١٢٩ طبعة ليدن —

كلب . ثم ترجع بكنانة كلب من ديارها هذه الى ناحية السماوة والفرات »[1] .

٦ — ذئاب السماوة في شعر ابن نباتة السعدي :

قال يصف الذئب :

وأطلس ما في سعيه غير أنــه	يضيق عليه الرزق والخرق واسع
يخاف أخوه حرصه وهو طاعم	وتهرب منــه عرســه وهو جايع
علا شرف البيـداء يسأل أنفـه	بياناً وقد أكدت عليه المطامع
فنمت إليه الريح ان شظية[2]	وبهماً بأكناف « السماوة » ضايع
فزعزع من قطريـه يذأل ضالعـاً	وما هو إلا بالحديعــة ضالع
على أي حال من يسـار وفاقة	يسير بما أهدت إليـه المطامع

٧ — مقامات الحريري :

ولا تخلو مقامات الحريري من ذكر هـذه البادية يشعر بما يكمن في فلواتهـا من وحشة وأخطار .

قال الحريري في المقامة الدمشقية : « ولطالما والله جبت مخـاوف الأقطـار ، وولجت مقاحم الأخطار ، فغنيت بها عن مصاحبة خفير ، واستصحاب جفير . ثم إني سأنقي ما رابكم ، واستسل الحذر الذي نابكم ؛ بأن أوافقـكم في البداوة ، وأرافقـكم في السماوة » .

٨ — رحلة ابن جبير

قال ابن جبير[3] في رحلته ما يأتي : « وعند هذه الثنية — يعني ثنية العقاب المشرفة على دمشق — مفرق طريقين احداهما التي جئنا منها — وقد جاء من حمص — والثانية آخذة شرقاً في البرية على السماوة الى العراق وهي طريق قصد ولـكنها لا تدخل إلا في الشتاء » .

مسائل تطرح بشأن السماوة

وقد آن لنا أن نتساءل ما هي مفازة السماوة ، ما حدودها . ما موقعها الجغرافي من

---

(١) صفة جزيرة العرب ص ١٣١ ، ١٣٢ .

(٢) كذا ورد في الأصل والشظية القطعة .   (٣) رحلة ابن جبير ص ٢٦٧ .

العراق . من هم السكان والقبائل فيها . لماذا تغلغلت البداوة في السماوة . ما الفرق بينها وبين الأقاليم النجدية . من هم رواد السماوة وماذا قالوا عنها . ؟ هذه أسئلة واردة عن البرية المذكورة . والفصول الآتية من هذه المقدمة كفيلة بالجواب .

حدود بادية السماوة . التعريف بالمفازة

إذا أخرجنا خطاً وهمياً ممتداً من ضواحي الكوفة الى ضواحي الشام . فما وقع من بادية العرب الى الجنوب من الخط المذكور فهو بادية الديار النجدية ، وما وقع من البادية نفسها الى الشمال من ذلك الخط فهو بادية السماوة ، ويشبه أن يكون مدلول الكلمتين أعني نجداً والسماوة واحداً ، فالسماوة مشتقة من السمو ، والنجد من البقاع ما مال الى الارتفاع وهو خلاف الغور ، على أن هذه الوحدة في مدلول الكلمتين لغوياً لا تعني وحدة في الخصائص الاقليمية من طبيعية وإجتماعية فالفوارق بين هاتين الباديتين الكبيرتين غاية في الجسامة .

عنى البلدانيون وغيرهم من الباحثين بتعريف برية السماوة وتحديدها على وجه يشعرنا بأنها من ألصق البوادي بأرياف الفرات الواقعة على ضفته الغربية . ومن رأى أكثر علماء البلدان أن السماوة أرض بين العراق والشام أو بين الكوفة والشام . ويستفاد من كلمة مسندة الى ابن عباس برواية هشام بن السائب الكلبي انّ اطراف العراق والسماوة وما يليها داخلة في حدود جزيرة العرب من جهتها الشرقية ، فالسماوة بناء على ذلك ليست جزءاً من اجزاء شبه الجزيرة العربية مثل نجد والحجاز ، وانما تعد من جملة حدود الجزيرة العربية[1] والواقع ان هذا المعنى يستفاد من كلام أكثر الباحثين في هذا الموضوع .

قال البكري[2] السماوة بفتح أوله مفازة بين الكوفة والشام وقيل بين الموصل والشام ،

---

(١) راجع عن هذه الكلمة المسندة الى ابن عباس مادة « جزيرة العرب » من معجم البلدان لياقوت (المجلد الثاني من الطبعة الالمانية) .

(٢) معجم ما استعجم للبكري طبعة باريس ص ٧٨٣ .

وهي من أرض كلب ، هذا ما جاء في كلام البكري ،ولا يخلو من غرابة إذ المعروف ان الموصل من ديار ربيعة وان الجزيرة من بلاد مضر وابن بلاد ربيعة ومضر وديار بكر من سماوة كلب وبينهما النهران الرافدان دجلة والفرات ، والفرق جسيم بين هذا التحديد وقول من يقول السماوة : أرض بين الكوفة والشام إذ لا يعترض الحدود بين باديتي الكوفة والشام ولا يفصل بينهما فاصل من قبيل هذه الأنهار .

وعاد البكري الى الكلام عن السماوة قائلا : قال أبو حاتم عن الأصمعي وغيره : السماوة أرض قليلة العرض طويلة ، قال ذو الرمة :

ولو قمت مُذ قام ابن ليلى لقد هوت ركابي لا فواه السماوة والرجل

فأفواه السماوة أولها ورجلها آخرها وقال الراعي :

وجرى على حدب الصوى فطردته طرد الوسيقة في السماوة طولا

يصف السراب يقول اذا مضت الإبل مضى السراب بين أيديها فكأنها هي تسوقه ، وقال الخليل: السماوة ماءة بالبادية ، وكانت أم النعمان سميت بذلك فكان اسمها ماء السماوة وكانت الشعراء تقول ماء السماء .

وفي كتاب المشتركات للحموي [١] : أرض لكلب بين العراق والشام أو بين الكوفة والشام. ويقول البديعي [٢] : السماوة هي الاقليم الواقع بين الكوفة من الشرق وتدمر من الغرب . وفي معجم البلدان : أقصر الطرق من العراق الى الشام قطع مفازة السماوة من وسطها وهي تسمى « سماوة كلب » هناك ، وكان للجيش والبريد والقوافل السريعة طريق خاص من الكوفة الى الشام تقطع في خمسة أيام .

---

(١) المشتركات ص ١٠٨ .

(٢) كتاب الصبح المنبي عن حيثية المتنبي للبديعي نقلا عن نسخة طبعت على هامش شرح ديوان المتنبي للعكبري ، ولا يخفى ان لكتاب الصبح المنبي اكثر من طبعة .

وفي المعجم أيضاً [١] . السماوة : الشخص . قال أبو المنذر إنما سميت السماوة لأنها أرض مستوية لا حجر فيها . والسماوة ماء بالبادية . وبادية السماوة هي التي بين الكوفة والشام أظنها مسماة بهذا الماء. قال السكوني: السماوة ماء لكلب. يقول المؤلف وإنما قيل: «سماوة كلب» لأنها أكبر قبيلة تضطرب في هذه البادية وتسيطر عليها . ولهذه القبيلة العريقة في بداوتها شأن كبير في تاريخ السماوة ، وقلما ذكرت السماوة في كتب التاريخ والبلدان القديمة الا وهي مضافة الى كلب بن وبرة . وقد أفردنا للتعريف بهذه القبيلة فصلاً تجده في مكانه من هذه المقدمة .

اصطلاح مهجور :

ظلت هذه البرّية تعرف بأنها سماوة كلب اوبادية السماوة او بادية الشام. ثم قل استعمال كلمة البادية مضافة الى كلمة السماوة من بعد القرن السابع . وغلب عليها قولهم بادية الشام إلى أن هجرت في تعريف هذه البادية كلمة «السماوة» بالمرة في العصور الأخيرة كما يتضح لنا من تصفح أسفار التاريخ وكتب البلدان والرحلات المصنفة بعد المائة السابعة . ومن المؤلفين الذين حافظوا على الاصطلاح القديم الخاص وهو قولهم «بادية السماوة» أبو سعد السمعاني في كتابه المعروف بالأنساب ، كما ستراه مفصلاً في فصل آخر من هذه المقدمة أما صاحب « حماه » فقد اقتصر على استعمال المصطلح العام وهو « بادية الشام » في كتابه « تقويم البلدان » وذلك في فصل عقده للبحث عن جزيرة العرب . وقد غلب هذا الاصطلاح على البادية المذكورة في العصور الحديثة ، وهو في الواقع اصطلاح قديم أيضاً أطلقه الاصطخري في كتاب «المسالك والممالك » على هذه البادية ثم أطلق الجمهور بعد ذلك حتى هذا اليوم كلمة « الحماد » عليها

(١) معجم البلدان الجزء ٣ من الطبعة الألمانية .

وبهذه الكلمة تعرف البادية المذكورة الآن لدى جمهور العراقيين المقيمين على مقربة من منطقة الطفوف أو بين ريف الفرات والمنطقة المذكورة من حدود المسيب أوالفلوجة شمالاً الى حدود كربلاء والنجف والكوفة بعد ذلك جنوباً ، ومعنى الحماد عندهم الأرض الرملية المقفرة في ارتفاع . ولا يصحح جماعة من المعنيين بالبحوث اللغوية استعمال كلمة الحماد بالمعنى المذكور .

قحط السماوة

كانت قافلتنا تجوب قلب السماوة وتقطعها من الوسط على خط معين بين مشارف الشام من الغرب ، وارياف نهر الفرات من الشرق بيد أن السماوة هنا فلاة ممحلة شديدة الجفاف حتى ان رمال الدهناء في قلب البادية النجدية اكثر منها نباتاً وشجراً بكثير .

لا تخلو رمال الدهناء الناعمة الحمراء ـ مع فقدان الماء فيها اطلاقاً ـ من مناظر اخاذة ، ووهاد مخضوضرة معشبة . وكم كانت خضرتها ريانة ماتعة ، وأريجها فواحاً منعشاً ، ورمال الدهناء هذه لا تخلو أيضاً من ذكور العشب ، وأحرار البقول وقد كانت الدهناء وما زالت من أكثر بلاد الله كلأ . قالوا : واذا اخصبت الدهناء ، ربعت العرب . ولم يقولوا مثل ذلك في السماوة .

لا شك ان الفوارق جسيمة بين هاتين الباديتين الكبيرتين المتجاورتين ، إذ تميزت بادية نجد عن جارتها بادية السماوة بخصائص عمرانية لا يستهان بها . من ذلك خصب وقوة إنبات في جملة من أريافها على أن هذا لا يعني ان ديار كلب وسماوتها مجدبة عقيمة بالمرة ؛ فهذه «منطقة الجوف » وهي «وادي القرى » أو « دومة الجندل» وهذا «وادي السرحان» وماإليه ، ـ على رأي من يرى أنها من السماوة ـ أقاليم تميزت بخصبها . ووفرة مياهها بالنسبة الى بقية جهات السماوة وقد اشتملت أعالي وادي السرحان على عدد من القرى العامرة اكبرها قرية تسمى « كاف » . أما موقع الجوف ، فهو في ادنى هذا الوادي . واهم قراه قرية يقال لها

« سكاكة » وأخرى يقال لها « القارة » وهي على ما في معجم البلدان ـ احدى القريّات التي منها دومة الجندل . وعليها ـ أيضاً ـ سور . ولكن دومة أحصن ، وأهلها أجلد . وقد وردت سكاكة معرّفة في معجم البلدان .

هذا ـ وحسبنا من خصب هذا الوادي الواقع على طرف السماوة من ناحية الجنوب الغربي ان البلدانيين العرب، سمّوه « وادي القرى » وهو حقاً كذلك ، بالنسبة الى المنطقة الوسطى الجافة الجدبة من بادية السماوة . اذ اشتمل الوادي المذكور على مدن وقرى مسوّرة لا تخلو من صناعات يدوية وان كانت بدوية بسيطة . وعيون هذا الوادي الثجاجة تسقي بساتين وحدائق ذات نخل وفاكهة .

وقد قامت في هذا الصقع دولة مستقلة لكلب كان الملك فيها « اكيدر بن عبد الملك ابن عبد الحي » . وقيام دولة من الدول ـ ولو كانت غير كبيرة ـ ليس بالأمر اليسير . لأن للدولة مقومات شتى . وقد وجدت تلك المقوّمات في دولة دومة الجندل وحكامها ورجالها من قبيلة كلب المذكورة . وذلك في أواخر عصور الجاهلية . والى اكيدر المذكور صاحب دومة ينسب الحصن الضخم الذي يقال له «مارد» وهو معروف في كتب التاريخ والبلدان أما بعد الاسلام ـ وقد أسلم من أسلم من أفخاذ هذه القبيلة ـ فان سيرة كلب من حيث محافظتها على عاداتها وأوضاعها وشيمها العربية واطراد حياتها على فطرتها الأولى هي هي . وقد ائتمنتها أكثر من دولة اسلامية على تنشئة ابنائها في باديتها على الفصاحة والفتوة . وقد أصهر الإمام أبو عبدالله الحسين بن علي ـ عليه السلام ـ إلى فخذ من افخاذ هذه القبيلة ، وأصهر الأمويون كذلك اليها . ولا يخفى أن ميسون بنت بحدل الكلبية كانت زوجة معاوية بن أبي سفيان . وهي التي لم يطب لها العيش في دمشق ، ولم تغرها الحضارة الباذخة فيها . وظل حنينها الى البداوة والبادية يعاودها ، وكراهيتها للتصنّع المعهود في الحواضر يجيش في صدرها . ولها في هذا المعنى ابيات سائرة معروفة :

للبس عباءتي وتقر عيني احب اليّ من لبس الشفوف

وبيت تخفق الأرواح فيه احبّ اليّ من قصر منيف

ولا يخفى ان هذا الشعر الرقيق ـ وكانت ميسون شاعرة من جملة شواعر هذه القبيلة ـ اضطر معاوية الى النزول على حكمها وتسريحها الى البادية .

كلمة في طبيعة البادية

لا توجد في هذا السمت الذي سلكناه من البادية ما يوجد في بعض البوادي من آجامٍ او غياضٍ او شجر وذلك لندرة المياه او فقدانها بالمرة ، والأودية هنا غير عميقة في الغالب اذا استثنينا « وادي حوران » وتزيد مقادير المياه في جهات السماوة القريبة من حلب والشام على مقاديرها في جهات الشرق المحاذية للعراق .

فالمياه الصالحة للشرب في هذه البادية نادرة جداً ، ويستثنى من ذلك ماء المنزلة التي يقال لها (الرطبة) الآن[1] وقد انشئت على هذا الماء قرية تقع في منتصف الطريق بين بغداد ودمشق وثكنة للشرطة كبيرة ، وهي من أقدم الثكنات في هذه البادية ، وفي هذه القرية أيضاً مخازن عدة للباعة وتتوقف عندها السيارات المسافرة بين العراق والشام .

وقد هطلت الأمطار مراراً خلال رحلتنا في هذه البادية قبل الوصول الى « وادي حوران » وفاضت الأودية ، وكان ذلك في أوائل فصل الخريف كما كان منظر الأودية والسيول تتدفق فيها والامواج تصطخب منظراً اخاذاً رائعاً حقاً ، ويقال للمطر في هذا الأوان « الوسميّ » وهو ما توسم به الأرض ، ووقوعه في هذا الفصل عندهم دليل على الخصب والريف ، و « الوليّ » ما يليه من المطر في الفصل الذي يلي فصل الخريف .

كنا نسير في فلاة قاحلة وفي صحو تام ، وليس من النادر مع ذلك أن نرى السيل يتدفق

---

(١) الرطبة اسم حديث ، وكان اسمها في البادية (الكمرة) وذلك قبل اربعين عاما ، وقد نزلنا بعد مراحل شاقة في البادية على ماء الكمرة ، اما اسمها القديم في كتب البلدان فالغالب انه (لاهة) او (القارة).

في بعض لأودية ، والعلة في هذا أن الجهات التي هطلت فيها الامطار تبعد عن خط رحلتنا مسيرة يوم أو يومين او اكثر من ذلك .

سماء صافية مرصعة بالنجوم وأرض ذهبية الأديم وهواء منعش جاف وهـــدوء تام وبساطة في المعيشة ، و بَشَرة البدويّ من سكان المنطقة ميّالة الى البياض أكثر من بشرة أخيــه في الجنوب . وعلى كل فان مناخ السماوة هنا موسوم بالاعتدال باعث على الحركة والنشاط .

في التكوين الطبيعي :

تختلف بادية السماوة عن بادية نجـد من حيث تكوينها الطبيعي فان بادية السماوة او (الحماد) كما يسمونها الآن ارض يغلب عليها الاستواء والتسطيح وتقل فيها الهضاب ، ويندر ان نجد بين دمشق وشواطىء الفرات ـ شواطىء الكوفة والمسيب والفلوجة فما فوقها ـ وهي قلب السماوة ومنطقتها الوسطى ، نقول يندر ان نجد في هـذه المنطقة جبلاً شامخاً او هضبة عالية بيد ان الاودية الكبيرة ومجاري السيول التي تنحدر من هضاب الشام الى البادية وتصب في الفرات غير قليلة في السماوة ، رمن اشهرها وادي السرحان ووادي حوران الى اودية اخرى ، وقد يحدث في الفرات مَدّ او فيضان او زيادة مُبكرّة حيث تسمى هناك « حورانية » وينتجون في سقي الفرات نوعاً جيداً من الحنطة يقال لها ايضاً « حورانية » نسبة الى « جبل حوران » لا الى هذا الوادي اذ لا زرع ولا ضرع فيــه ، هذا في بادية السماوة اما في نجـد فان جبالها الشاهقة غير قليلة ومن اشهرها جبل (اجأ) و (سلمى) او (جبل شمر) في القسم الشمالي من البادية النجدية ، اما في القسم الجنوبي فهناك جبل (طويق) وجبال اخرى محاذية لحدود الحجاز وعسير واليمن .

قبائل البادیتين :

هذا والى جانب ذلك نرى بادية نجد حافلة بجملة من اشهر قبائل العرب مثل (بني اسد) و (تميم) و (طي) ، ويلاحظ أن جل قبائل السماوة كانت قحطانية في انسابها ، ومن

ذلك قبيلة (كلب بن وبرة) نفسها على اشهر الاقوال بخلاف قبائل الديار النجدية فان جملة منها تعتزي الى عدنان ، ولا شك ان جملة من قبائل الشام البعيدة عن السماوة كانت ترتادمنذ القدم مراعي هذه البادية في فصول معينة ، ومن ذلك السكاسك والسكون وقيس وربيعة وزبيد ، وما زالت قبائل العراق والشام ونجد احياناً ترتبع اوتخرج بماشيتها الى بادية السماوة الى هذا اليوم اذا نزل الغيث ، وقد اعتادت بعض هذه القبائل على البقاء اشهراً في البادية.

السماوة من ميادين الكفاح :

السماوة في حرب صفين . حجر بن عدي . الضحاك بن قيس

لا يخفى ان صفين التي وقعت فيها الواقعة المشهورة في خلافة الامام عليّ موضع في أعالي الفرات في الجهة الغربية منه او بينه وبين حلب . ومن المعلوم أن الامام علياً اختار السير على شواطيء الفرات من الكوفة حتى صفين ، وهي أيضاً الطريق التي سلكها الامام الحسن بن علي قبل صلحه مع معاوية ، أما جيوش أهل الشام فقد سلك كثير منها بادية السماوة الى صفين وهي اقرب واقل مشقة من طريق اهل العراق .

وقد جرت بعض الغارات بين أهل العراق وأهل الشام قبل واقعة صفين الكبرى في بادية السماوة نفسها ومن أشهرها غارة « الضحّاك بن قيس الفهري » من قواد معاوية ـ اي غارتـه على الحيرة ـ حيث خرج من جانب العراق للقاء الضحاك بامر من الامام علي صاحبه « حجر بن عديّ » حتى مرّ بالسماوة وهي أرض كلب وفيها ـ أي في بادية السماوة ـ لقي « حجر » ـ امرأ القيس بن عديّ بن أوس بن حارث بن كعب بن عليم الكلبي ، وهم الذين أصهر اليهم الحسين بن علي فكانوا ادلاّءه ـ أي أدلاء القائد العراقي حجر بن عدي ـ في الطريق وعلى المياه ، فلم يزل عديّ مغذّاً في إثر الضحاك حتى لقيه في ناحية « تدمر » واقتتلوا هناك[1] ومن رأينا أن هذه الغارة التي قام بها الضحاك الشامي على الحيرة سالكا بادية السماوة وقعت في فصل الربيع أو الخريف ، وفيها يمكن قطع هذه المفازة للجيوش خصوصاً اذا كانت

---

(١) يراجع تفصيل ذلك في شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد الجزء الاول ص ١٥٣ ـ ١٥٥ .

فرساناً او خليطاً من الفرسان وغيرهم. فان الضحاك اتجه من السماوة جنوباً الى حدود الديار النجدية ثم عاد الى طفوف بادية الفرات والحيرة ، ومنها ماء يقال له « شراف » وعين يقال لها « القطقطانة » . ومن هناك اغار على الحيرة .

رحم الله حجر بن عدي فقدضرب لنا في سيرته هـذه ، وفي اندفاعه اثر الضحاك كالصاعقة مثلا رائعاً في البطولة والتفاني والاخلاص .

السماوة مشتى الامويين :

كان الامويون يتحاشون الاقامة في دمشق في بعض الفصول لرطوبتها وحمياتها .. كما كانوا يحنون الى البادية حيث بنوا لهم فيها جملة من القصور والدور ، وكان لعبد الملك بن مروان عدة قصور في البرية . قال ابن تغري بردي في حوادث سنة ٤٦٨ « ابن حسان بن مسمار الكلبي قلعة صرخد وكان مقدم العرب » وانشأوا طريقاً مرصوفة من صرخد الى اعالي الفرات .

كلأ السماوة

في امالي القالي أسنت بنو تميم زمن علي بن أبي طالب فانتجعوا ارضاً من ارض السماوة ويقال لها « صوأر » من الكوفة على عقبة [1] .

في معرض المقارنة بين نجد والسماوة :

ولا بد لنا في معرض المقارنة بين نجد والسماوة أن نقول : إننا نعني : المقارنة بين هذه البادية وتلك فقط دون الحاضرة ، ففي نجد بادية وحاضرة ومرافئ وسواحل ، وفي السماوة بادية فقط ، ولا تخلو بادية نجد من خصب وريف ومن مقومات حضارة زراعية ، وفي مقدمتها توفر المياه الجوفية وخصوبة التربة ، وفي تاريخ نجد الحديث شواهد غير قليلة على ذلك ، نذكر من جملتها الدعوة التي انتشرت هناك في سبيل الاقلاع عن البداوة والحث على التحضر والاستقرار ، وهي حركة معروفة أسفرت عن إنشاء كثير من القرى

---

(١) الامالي ج ٣ ص ٥٢ .

أخلدت إليها قبائل كانت عريقـة في البداوة والاضطراب وشن الغارات ، قامت بهذه الحركة الحضارية سنة ١٣٣٠ (١٩١١ م) جماعات من أبناء نجد ، بعضها من قبيلة « مطـير » وآخرون من « العجمان » وجماعات من قبائل « حرب » و « شمر » و « عتيبة » وامثالها حيث أطلقـوا على كل واحـدة من تلك القرى المستحدثـة اسم « الهجرة » ، وهم يعنون الهجرة من البـادية الى الحاضرة . ونسبت كل هجرة أيضـاً إلى قبيلتها فقالوا مثلا : « الارطاوية هجرة مطير » ، ولا شـك ان الأصل في ذلك النهي المأثور عن الركون الى الاعرابية او الى البداوة بعـد الهجرة ، وكانت تلك القرى معروفـة باسمائها في ذلك الحين أقام فيها أصحابهـا معنيين بالحرث والزراعة مدّة ناهزت العشرين عاماً ، ويقال ان بعض هذه « الهجر » تمت في مدة قليلة وبلغ عدد سكانها عشرات الألوف ، على ان السلطات السعودية اضطرت الى اخلائها إثر فتن وقلاقل قام بها بعض القوم هناك ـ وحسناً فعلت ـ هذا وحسبنا ذلك دليلاً على توفر خصائص العمران الزراعي في تلك الأنحاء ، ولعل هذا من أظهر الفوارق بين بادية السماوة والبادية النجدية .

أثارت الحشود المذكورة في « الهجر » النجدية كما لا يخفى قلقاً غير قليل في الأقطار المصاقبة لنجد من الشرق والغرب على حد سواء ، خصوصاً العراق والحجاز اذ اصبحت هذه القرى او « الهجر » كما يسمونها قواعد عسكرية يستند اليهـا بعض القوم في غزو الآمنين من جيرانهم في العراق والحجاز .

ولا بد لنا من القول بان هـذا التحفز والاندفاع في سبيل الغزو قديم بدأ بعد مضيّ زمن قليل على ظهور الدعوة المعروفة التي دعا اليها الشيخ محمد بن عبـد الوهاب واستجاب لها من استجاب في نجـد ، وذلك في صـدر المائة الثالثة عشرة فهوجمت غير حاضرة من حواضر العراق ، هوجمت البصرة والزبير والسماوة والرماحية والنجف وكربلاء بين سنة ١٣١٨ الى سـنة ١٣٢٣ ، وردّ الغزاة على الأعقاب الا في الزبير وكربلاء فانهم استولوا على هاتين المدينتين واستباحوها في حوادث مشهورة، هذا ولا ننسى ما قاسته أخيراً قبائل العراق التي تنتجع مراعي البادية غربي الفرات او غربي الطفوف من تلك الغارات .

يتضح لنا من هذه المقارنة ان السماوة فلاة مقفرة أو مجدبة جافة في الغالب لا يوجد في باديتها ما يوجد في بادية نجد من أعشاب حرّة وأشجار ونبات إلا نادراً ، ولا يوجد في السماوة ما يوجد في بادية نجد من آبار واعداد مياه معروفة ترتادها الركبان وتنزل عليها القفول على وجه الدهر إلا القليل ، ونحن نعرف في مراحل هذه البادية النجدية التي قطعناها ، وفي طريق الكوفة والنجف والحيرة إلى نجد اعداد مياه من هذا القبيل ، منها ، العذيب ، الشبكة ، الثعلبية ، السلمان ، لينة ، واقصة ، بصية ، البدع ، أم الرضم ، الشعيبة ، وقد نزلنا على اكثر هذه المياه ، وكنا ضيوفاً على بعض الحلل والاحياء البدوية هذا عدا ما يوجد من أعداد مياه في الجنوب أو في الطريق السالكة من البصرة إلى الأحساء والى الرياض وما وراءها ، فهناك المياه والمناهل . مناهل وادي الرمة ووادي العرمة ، وعلى هذه المناهل تمر أعظم الطرق النجدية السالكة من البادية إلى جهات البصرة . من هذه الناحية ذاعت اسماء المناهل والمنازل في نجد وورد ذكرها في شعر الشعراء ووضعت في التعريف بها كتب ومصنفات دون تلك المناهل والمنازل الموجودة في برية السماوة اذ ليس لها نصيب من تلك الشهرة ، فاصبحت منسية او بحكم المنسية .

هذا ولا يوجد أيضاً في بادية السماوة ما يوجد في بادية نجد من مظاهر العمران ودلائل البر والاحسان والاصلاح التي تقدمت بانشائها شتى دول الاسلام خصوصاً على عهد الدولة العباسية قال اليعقوبي [1] « من أراد أن يخرج من الكوفة الى الحجاز خرج على سمت القبلة في منازل عامرة ومناهل قائمة فيها قصور الخلفاء من آل هاشم ، وأوّل المنازل القادسية وهلم جرّا وهناك مصانع المياه وبركها والمرافق العامة والحصون حتى وصفت هذه الطريق السالكة من الكوفة والنجف والحيرة الى نجد بأنها « الطريق السلطانية » ، وقد اتسعت بعض المنازل الواقعة في هذا الطريق حتى صارت في فترة ما قرى ومدناً ذات أسوار ومساجد وحمامات مثل « الثعلبية » و « زبالة » .

---

(١) كتاب البلدان لليعقوبي ص ٣١١ .

هـذا ما قاله اليعقوبي عن مظاهر الحضارة والعمران على عهده في الطريق ما بين الكوفة الى نجـد والحجـاز ، اما اليوم فلا نرى إلا بعض الأطلال والبرك او المصانع المطمورة بالتُراب ، وفي ذلك عِبرة للمعتبرين ، ومن المفيد أن نعلم مع ذلك ان السماوة لا تخلو من اعداد مياه قديمة وان لم تكن كثيرة ، ومن أشهرها : « قراقر » في الشرق و « الهزيم » في الغرب او في جهات وادي السرحان ، و « سوى » في الشمال و« لاهه » و«القارة»او «الـگعرة» —كما تسمى الآن— في قلب السماوة ، ولـكن بين بعض هذه المياه « السماوية » مسافات بعيدة ، وقد تقطع القفول في السماوة أربع مراحل أو أكثر بدون أن تجـد منهلاً تتزوّد منه كما اتفق لنا في هـذه الرحلة التي قطعنا فيها هذه البادية ، فإننا تزودنا من ماء يسمى « السبع بيار » على ثلاث مراحل من دمشق ثم فوّزنا أربعة أيام أو أربع مراحل لا أثر فيها للماء بالمرّة حتى وصلنا الى ماء «الـگعرة » وقد أخذ اليأس مأخذه من القافلة وانقطع الرجاء أو كاد .

هذا ولا بد لنا في هذا الصدد من الاشارة الى بعض العوامل التي نشأ عنها تقدم العمران في نجد بالنسبة الى بادية السماوة ، من ذلك موقع نجد الممتاز وكونها في طريق قوافل الحاج الذين يشدون رحالهم من المشرق والعراق الى الحجاز ، ولا مناص لهم من المرور على البادية النجدية ، وقد عرفنـا اكثر من طريق يسلـكه الحجيج ، من ذلك طريق يبدأ من الـكوفة او من النجف الى نجد ثم الى الحجاز في مراحل معينة ، وطريق آخر من البصرة الى مكة .

وقد عني المسلمون شعوباً ودولاً بهذه الطرق ، واحداث ما يحتاج اليـه الحجيج من مرافق ووسائل راحة فيها ، وذلك بين العراق الى قلب البادية النجدية ، ثم الى الحجاز ، وبالجملة من سراة المسلمين آثار باقية من هذا القبيل .

التعريف بقبيلة كلب :

لا تذكر هذه البادية بادية السماوة في كتب البلدان والتاريخ والانساب غالباً إلاّ مضافة الى «كلب» ـ احدى بطون قضاعة ـ التي يعدون من بطونها أيضاً «جهينة» و«بلي» و«عذرة» وأشهر تعاريف البلدانيين القدماء لها قولهم « سماوة كلب » وهي عبارة يكثر ورودها في كتب التاريخ والبلدان ، كأن هذه البادية الشاسعة بعرضها وطولها ومشتملاتها ملك لهذه القبيلة لا نصيب لقبيلة عربية أخرى فيها ، والى انفراد كلب واختصاصها بالسماوة مردّ عزلتها واغراقها في البداوة ، وقلما احتكرت قبيلة عربية واحدة بادية كبيرة مثل احتكار كلب للسماوة في الجاهلية وفي أولى القرون الاسلامية الى ان اخرجتها منها قبائل اشد منها قوة وبأساً بعد ذلك . وتلك الأيام نداولها بين الناس .

لما قطعنا بادية السماوة أو « سماوة كلب » إلى العراق في رحلتنا من الشام سنة ١٣٣٨ (١٩٢٠) لاحظنا أن القبيلة التي تسيطر على البادية المذكورة هي « عنزة » بعدد من بطونها وافخاذها ، وقد احتلت بطون عنزة البادية المذكورة منذ أمد وما زالت إلى اليوم ، ولم نجد في البادية أثراً لقبيلة « كلب » التي ملكتها في الزمن القديم حتى عرفت البادية بالاضافة إلى هذه القبيلة فقالوا « سماوة كلب » ، ولهذه الناحية أصبح لزاماً علينا تجريد بحث خاص نعرّف بها هذه القبيلة الخطيرة المنسية عند المعاصرين :

ساق الباحثون في أنساب قبائل العرب نسب كلب قائلين « كلب بن وبرة بن تغلب ابن حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة » هكذا ساق النسابون نسب هذه القبيلة إلى قضاعة ، وقد حفلت كتب التاريخ والنسب بذكر « كلب » على تعدد بطونها ، وتسمية منازلها والبحث في أخبارها ووقائعها والتعريف بزعمائها ورجالها في الجاهلية والاسلام .

تعد كلب في طليعة قبائل العرب الضخمة العظيمة ، وقد ذهبت بالعدد والشرف

ولابن النديم في الفهرست فصول حسنة في تراجم النسابين والاخباريين من الكلبيين – مثل هشام بن السائب الكلبي – وتسمية ما لهم من كتب ومصنفات .

أما ابن حزم القرطبي فقد تناول التعريف ببطون كلب ومشاهير رجالها ببحث فذ عني فيه بتعريف المتأخرين من المنتمين إلى هذه القبيلة في العصور الاسلامية [١] . ومن الأمثلة على ذلك قوله ـ وقد ذكر هشام بن السائب الكلبي : ـ « قتل أبوه السائب في صفين مع علي » [٢] . وعقد ابن عبد ربه فصولا عدة في أحوال هذه القبيلة [٣] .

وعني البلاذري كذلك بذكر وقائع كلب وقيس ، والعصبية بين هاتين القبيلتين وأيامها في صدر الاسلام وبعد ذلك على عهد الدولتين الاموية والعباسية [٤] .

وفي بحوث الجاحظ عن الرواة والنسابين والخطباء ورد ذكر شرقي بن القطامي الكلبي ومحمد ابن السائب الكلبي وهشام بن محمد بن السائب وعوانة الكلبي ، ويقول الجاحظ : ان الشرقي القطامي اختاره المنصور مؤدباً لاولاده ، وقال عن سفيان بن الابرد الكلبي « إنه من أكابر قواد الدولة الاموية وخطبائها » . وقد تحدث ـ اعني الجاحظ كثيراً [٥] عن عوانة الكلبي الاخباري النسابة وعن أمثاله من النسابين المنتمين إلى هذه القبيلة .

---

(١) تراجع مادة « كلب بن وبرة » من كتاب جمهرة انساب العرب ص ٤٢٥ ـ ٤٣١ .

(٢) المصدر ذاته ص ٤٧٩ .

(٣) تراجع الصفحات التالية من كتاب العقد الفريد « ج ١ ـ ٢٧٥ ، ٢٧٦ ، ٣١٢ » . « ج٢ ١١٥٩ . « ج ٤ . ١٢٤ ، ١٢٩ » . « ج ٥ . ١٥٨ ، ١٥٩ ، ١٦١ ، ٢٠٥ ، ٢٢٦ . « ج ٧ ١٠٠ ، ١٥٨ ، ١٧٧ » . « ج ٨ . ١٦٠ ، ١٦٣ » .

(٤) راجع الصفحات التالية من كتاب انساب الاشراف للبلاذري. ١١٨، ١٢٨، ١٢٢، ١٣٣-١٣٦ ١٣٨ ، ١٤٢ — ١٤٣ ، ١٤٧ ، ١٥٧ — ١٥٨ ، ١٨٣ ، ١٨٦ ، ١٩٠ ، ١٩٧ ، ٢٩٩ ، ٣٠١ — ٣٠٣ ، ٣٠٥ ، ٣٠٨ ، ٣١٤ ، ٣٢٠ ، ٣٢٥ .

(٥) البيان والتبيين للجاحظ ٣ ص ١٣٥ الطبعة الجديدة .

دور الكلبيين في حرب صفين

ويبدو لنا من التأمل في تاريخ حرب صفين أن قبيلة كلب هذه قد انشطرت الى شطرين شطر قاتل مع الامام عليّ ، وآخر قاتل الى جانب معاوية ، ففي كلب قوم أصهر اليهم آل علي وآخرون أصهر اليهم معاوية ، وكان من جملة أمراء معاوية في حرب صفين « حسّان بن بحدل الكلبي » وهو على قضاعة دمشق و « عبّاد بن يزيد الكلبي » وهو على قضاعة البادية [١] .

ومما يتفاخر به الأمويون أن يزيد بن معاوية كان أعرابي اللسان بدويّ اللهجة ، وايّاه أراد أبوه بقوله : « عليّ بالخطيب الأشدق » وهذه البداوة في منطق يزيد لحقته ـ فيما يبدو لنا ـ من إقامته عند أخواله في كلب بالبادية .

ويستفاد على كل حال من كتب التاريخ ولاء فريق غير قليل من كلب للامويين وبيعتها لغير واحد من امراء الدولة الاموية [٢] .

كلب تقتل والياً لمعاوية :

هو النعمان بن بشير بن سعد الانصاري ، وبشير بن سعد عقبي بدري . قتلته كلب [٣]

معاوية يعزل عاملا له من كلب :

قال عوانه : استعمل معاوية رجلاً من كلب فذكروا يوماً المجوس وعبدة النار فقال : لعن الله المجوس ينكحون امهاتهم ، والله لو اعطيت مائة الف درهم ما نكحت امي فبلغ معاوية ذلك فقال قبحه الله اترونه لو زادوه فعل ذلك ؟ وعزله [٤] .

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد المجلد الاول : ص ٣٤٦ .

(٢) يراجع عن ذلك العقد الفريد ج ٥ ص ١٥٨ — ١٦٢ .

(٣) تجد قصته في امالي القالي ج ٣ ص ٨ .

(٤) العقد الفريد ج ٢ ص ١٧٧ .

حديث السفياني :

وحديث السفياني وأخباره في كتب الملاحم حديث مشهور، وانه من ولد خالد بن يزيد بن أبي سفيان يخرج من ناحية دمشق ، وعامة من يتبعه من كلب ، وفي الحديث ما فيه من الدلالة على اعتزاز الأمويين بولاء هذه القبيلة ، او بولاء من يقيم منها بالشام على الأرجح ، إذ الحق ان أفخاذاً كبيرة من كلب ناوأت الأمويين وحاربتهم في صفين وانشقت عليهم بعد ذلك [1] .

الشعر والشعراء :

هذا وليس عدد الشعراء الذين ينتمون إلى قبيلة كلب من جاهليين وإسلاميين بالعدد القليل حتى تهيأ لبعض المعنيين بتدوين شعر شعراء القبائل أن يضع كتاباً عنوانه « أشعار كلب » [2] .

ومن تصفح معجمات الشعراء وغيرها اتضح له أن عدد الشعراء الكلبيين الذين تغنوا بجمال بلادهم واستوحوا مظاهر الطبيعة الرائعة فيها غير قليل ، وحسبنا من هؤلاء الشعراء المنتمين إلى هذه القبيلة من سماهم المرزباني في كتابه معجم الشعراء [3] ، على أننا لاحظنا قلة

---

(١) أنظر كتاب صفين لنصر بن مزاحم ط القاهرة سنة ١٣٦٥ هـ ص ٢٥٥ .

(٢) المؤتلف والمختلف للآمدي ص ١١ .

(٣) من هؤلاء الشعراء : الأحمر بن شجاع الكلبي ، الاخنس بن نعجة الكلبي ، الادبرد الكلبي ، أربد بن ضابيء بن رجاء الكلبي ، الاغلب الكلبي ، أمرؤ القيس بن حمام الكلبي ، أمرؤ القيس بن عدي الكلبي ، حواس بن القعطل الكلبي ، حارثة بن أوس الكلبي ، حارثة بن شراحيل الكلبي ، جمال بن حمل الكلبي ، حمام بن ضرار الكلبي ، حناك الكلبي ، خرقة بن شمات الكلبي ، أبو الخطاب الكلبي ، ذو الاصبغ الكلبي العليمي ، زهير بن جناب الكلبي ، عدي بن عطيف الكلبي ، بن عرن الكلبي ، العطاف بن أبي شنفره الكلبي ، عطية بن الاسود الكلبي ، عمرو بن أسود الكلبي ، عمرو بن حجر الكلبي ، عمرو بن زيد بن المتمني الكلبي ، عمرو بن شراحيل الكلبي ، عمرو بن عبدود الكلبي ، فراس بن عبد الله الكلبي ، كلثوم بن وائل الكلبي . =

عدد الفحول المجودين ممن ذكرهم المرزباني من شعراء هذه القبيلة ، وهذا لا ينفي أن تكون هناك مآخذ لشعراء آخرين من كلب ولأشعارهم أيضاً ولكنها من المآخذ المفقودة ، وزهير بن جناب الكلبي معدود بين أشهر شعرائهم وأقدمهم ، وهو سيد قومه وشاعرهم ووافدهم على الملوك ، سمي كاهناً لسداد رأيه ، كان في زمن كليب بن وائل [1] والأبيات الثلاثة الآتية من قصيدة له أوردها الطبري في أحد عشر بيتاً (٢ : ٣٩) ومثله ابن سلام في الطبقات (٣٢ — ٣٣) ويقول ابن الكلبي « ثلاثة أبيات منها حق ، والباقي باطل » وهو القائل :

اذا قالت حذام فصدقوها — فان القول ما قالت حذام

ومن شعره السائر :

أبنيّ إن أهلك فإني قد بنيت لكم بنية

وجعلتكم أبناء سادات — زنادكم وريّة

من كل ما نال الفتى — قد نلته إلا التحية

هجاء كلب :

هجا الشاعر الاخطل قبيلة كلب ، والاخطل كما لا يخفى من تغلب [2] ولكل من جرير والفرزدق شعر في هذه القبيلة [3] .

= وقد ترجم ابن دحية في كتابه الذى سماه (المطرب في اشعار اهل المغرب) جماعة من اعلام الكلبيين في الاندلس وصقلية والمغرب واستوفى ابن حزم في كتابه جهرة انساب العرب اخبار من اخرجتهم كلب وقضاعة من الاعلام ومنهم امرؤ القيس اوس بن جابر بن كعب بن عليم وقد تزوج الامام علي وابناه الحسن والحسين بناته . انظر جهرة انساب العرب ٤٢٧ .

(١) وممن ترجم لزهير بن جناب ترجمة مفصلة ابن سلام في طبقات الشعراء ص ١٣ مطبعة بريل سنة ١٩١٦ .

(٢) كتاب الحيوان للجاحظ ج ٤ ط مكتبة الجاحظ .

(٣) طبقات الشعراء لابن سلام ص ٨١ طبع مطبعة بريل سنة ١٩١٦ .

لكل قبيلة حماها :

قال ثعلب : (الحمى » حمى « فيد » إذا كان في أشعار أسد وطيء ، فأما في أشعار كلب فهو حمى بلادهم)[1] ، ومعنى هذا ان كلباً توازي طياً وأسداً في كثرة شعرائها ، وفي ذلك ما فيه من الدلالة على جودة طباعها وسعة خيالها وشبوب عواطفها .

الفصاحة :

وصفت هذه القبيلة بالفصاحة ، بل هي من القبائل التي يحتج أهل العربية باقوالها شعراً ونثراً ، وكذلك كانت قضاعة ـ وكلب كما لا يخفى بطن من بطون قضاعة ـ ، وفيهم العدد والشرف كما يقول أهل الأنساب ، قال الفرّاء : أهل الحجاز وطي يقولون : فاظت نفسه بالظاء ، وقضاعة وتميم وقيس يقولون : فاضت بالضاد ، مثل : فاضت دمعته .

من عيوب المنطق في قضاعة :

قال معاوية يوماً من أفصح الناس فقال قائل : قومٌ ارتفعوا عن لخلخانية الفرات وتيامنوا عن كشكشة تميم ، ليس لهم غمغمة قضاعة ولا طمطمانية حمير ، قال فمن هم ؟ قال : قريش[2] .

نائلة الكلبية ، بلاغتها واخلاصها :

قالت تماضر امرأة عبد الرحمن بن عوف لعثمان بن عفان : هل لك في ابنة عم لي بكر جميلة ، ممتلئة الخلق ، اسيلة الخد ، اصيلة الرأي تتزوجها قال : نعم ، فذكرت له نائلة بنت القرافصة الكلبية فتزوجها ، وهي نصرانية وحملت اليه من بلاد كلب فلما دخلت عليه قال لها لعلك تكرهين ما ترين من شيبي قالت : والله اني لمن نسوة احب ازواجهن اليهن

---

(١) شرح ثعلب على ديوان زهير ص ٣٨٠ .

(٢) يراجع البيان والتبيين « ج ١ : ٣١ ، ١٢٣ ، ١٢٨ ، ٢٠٥ ، ٢٥٦ ، ٢٦٣ ، ٢٧٣ ، ٢٨١ ، ٣١٠ » . « ج ٣ : ٣١ ، ١٢٨ » .

الـكهل، ويلي ذلك حوار دار بين نائلة وعثمان جاء في آخره ، اتقومين الينا ام نقوم اليك؟ قالت ما قطعت اليك ارض السماوة، واريد ان انثني عن عرض البيت، قالوا فلم تزل عنده حتى قتل وهي التي وقته بيدها فجذمت اناملها فارسل اليها معاوية يخطبها فارسلت اليه ما ترجو من امرأة جذماء ؟ ويقال ايضاً انها هشمت فاها بفهر ، وقالت والله لا قعد احـــد مني مقعد عثمان ابداً [١] .

الرياضه في ديار كلب :

ويستفاد من كتب البلدانيين ، ان الرياض كثيرة في ديار كلب ، وقد سمّى ياقوت الحموي عدداً لا يستهان به من رياض بادية السماوة ، وأهلها من كلب معززاً ذلك ببيت أو أكثر من الشواهد الشعرية لشعراء كلبيين ، ومن الرياض المذكورة : روضة الحر ، روضة الشبيكة ، روضة قبلى ، روضة الـكريه ، روضـــة المثرى ، روضة المهالح ، روضة النجود ، روضة واجد [٢] .

سيطرة كلب :

وعلى الإجمال كانت لـكلب سيطرتها على السماوة قبل الاســـلام وبعد ذلك إلى فترة تاريخية طويلة ، والغالب ان البادية المذكورة كانت مأهولة بهـــذه القبيلة في العصر الذي ازدهرت فيه مملـكة تدمر ، وذلك في اواسط المائة الثالثة بعد الميلاد ، وحاول بعض ملوك تدمر من العرب التقدم إلى الشرق ، وضم بعض أقطاره إلى مملـكتهم ولـكنهم وقفوا عند حدود البادية ، وكان خراب تدمر كما لايخفى على يد بعض قياصرة الروم سنة ٢٧١ م .

نعم كلب :

حديث مطول يستفاد منه عناية كلب بماشيتها وابلها ، واختيار بعض الحـكام جوائزهم

---

١) العقد الفريد ج ٧ ص ٩٩ــ ١٠٠ .

٢) معجم البلدان لياقوت ط الثانية ج ٢ . — مادة روضة —

من نعم كلب دون غيرها ، ورد هذا الحديث في امالي القالي[1] وفي العقد الفريد مع شيء من التفاوت في الزيادة والنقصان[2] .

كلب بين دول العراق والشام :

هذا ومما لا شك فيه أن دول الروم والفرس قبل الاسلام استخدموا بدو السماوة في حروبهم وفي شتى أغراضهم وحالفت كل دولة من تلك الدول من كان بجوارها من هؤلاء العرب في جاهليتهم ، وكان البدو منهم مستخدمين بين دول العراق والشام كما نرى الآن بدو عنزة ، منهم التابعون للعراق ومنهم الملحقون بالشام .

ومما لا شك فيه أيضاً أن طرق بادية السماوة في هذا اليوم هي طرقها القديمة التي سلكها الآشوريون والبابليون والروم والفراعنة في حروبهم وغزواتهم غرباً وشرقاً، ومنها نفذ قمبيز الفارسي إلى الشام، وبطليموس الرومي (٢٢٣ م ـ ٣٢٢) إلى العراق بطريق الجوف او تدمر . ولا تخلو هـــذه البادية وخصوصاً القسم الشمالي من آثار طرق مرصوفة أنشأها الروم على الغالب بين ضواحي حمص إلى نهر الفرات ، ولا ريب كذلك أن حرس المناذرة في العراق وفي الحيرة وحرس الغساسنة في الشام كانوا يجوبون هذه البادية بين الحيرة والجوف أو بينها وبين الشام .

ولنا أن نقول ان الغارات كانت سجالاً بين الغساسنة والمناذرة على حدود السماوة او في قلب هذه البادية ، وكانت لكلب في الجاهلية والاســـلام خفارة القوافل التي تسلك طرق السماوة في تلك العصور .

وهذا يعني ان لمملكة المناذرة موقعها الممتاز من بلاد العرب، ولمنطقة الحيرة والكوفة خطرها في تاريخ العراق والبلاد العربية في الجاهلية والاسلام .

ويستفاد ايضاً من تضاعيف كتب التاريخ والبلدان انقوافل التجار والسفار وبريد الدول

---

(١) الأمالي ج ٣ ص ٤٤ .

(٢) العقد ج ١ ص ٣١٧ .

سانت تسلك من العراق سبل المنطقة الجنوبية قبل المنطقة الوسطى التي نسلكها الآن خصوصاً في صدر الاسلام وبعد استيلاء المسلمين على العراق والشام ، فكانت القوافل تخرج من الكوفة ـ والكوفة يومئذ دار الامارة ـ الى الشام بطريق السماوة وبخفارة خفراء كلبيين ولا يخفى أنها اقصر طريق بين القطرين ، ولم يكن يومئذ لبغـــداد ولا للعباسيين الذين أنشأوها وجود .

دولة كلب في جزيرة صقلية :

كونت كلب دولة في جزيرة صقلية سميت « دولة الكلبيين » وكانت في أول أمرها تابعـة للدولة الفاطمية ثم انفصلت عنها ، وذلك في صدر المائة الرابعة ، وقد تعاقب عليها عشرة امراء ينتسبون الى كلب اولهم الحسن بن علي الكلبي حكم في الجزيرة من سـنة ٣٣٦ الى سنة ٣٤٧ . وكانت عاصمة هذه الدولة مدينة « مازر » ، وخلفه على الجزيرة جماعة من اهله وذويه آخرهم الصمصام بن تاج الدولة ، حكم من سنة ٤١٧ الى ٤٣١ . وبعد ذلك استولى الافرنج على الجزيرة المذكورة ، ولم يبق بيد الكلبيين منها الا بعض الحصون الى ان استخلصها منهم (رجار الفرنجي) صاحب صقلية ٤٦٤ .

هذا وقد راجت لاداب اللغة العربية سوق في هذا العصر من عصور صقلية ، وظهر فيها كثير من الفقهاء والشعراء والمؤلفين في فنون الادب كابن القطاع الصقلي صاحب تاريخ صقلية، وابي محمد عبد الجبار بن حمديس صاحب الديوان .

وحسبنا من شعراء صقلية الامير ابو محمد الكلبي الصقلي [٨] وهو القائل :

---

(١) تجد في خريدة القصر (قسم شعراء المغرب والاندلس والقيروان) تراجم موجزة لجماعة من امراء صقلية والقيروان من الكلبيين وكذلك لبعض القواد والكتاب وهم كثيرون ، وتجد في هذا القسم فصلاً خاصاً عقده العماد الكاتب لشعراء صقلية ،

وراجع ايضاً كتاب المطرب في أشعار أهل المغرب تأليف ابن دحية ، وقد ترجم فيه لجماعة من الكلبيين وابن دحيه الكلبي هو المحدث الاديب الرحالة صاحب كتاب التنوير في مولد السراج المنير، والنبراس في خلفاء بني العباس وقد طبع هذا الكتاب في بغداد . وراجع في هذا الباب دراسة ايضاً لنا عنوانها أدب « المغاربة والاندلسيين»

تقول لقد رأيت رجال نجـد | وما أبصرت مثلك في يماني
الى كم ذا الهجوم على المنايا | وكم هـذا التعرض للطعان
فقلت لها : سمعت بكل شيء | ولم اسمع بكلبي جبان

كلب في خفارة طرق المواصلات :

كانت بلاد العرب قبل كشف الطرق التجارية البحرية الحديثة همزة الوصل بين الشرق والغرب ، وكانت لـكلب خفارة طرق المواصلات بين الشام والعراق والخليج الفارسي من جهة ، وبين الشام وبلاد الروم من جهة اخرى .

ويستفاد من التأمل في بعض كتب التاريخ ان رؤساء كلب كانوا يفيدون من خفارة القوافل بين الشام والعراق وبين الشام وبلاد الروم الى ان تحولت حركة النقـل في هـذه الجهات من البر الى البحر ، وبطل عمـل القوافل في الاسفار البعيدة الا بين بلد وآخر قريب منه .

هكذا تقلبت الاحوال بقبيلة كلب فشرّقت وغرّبت ، وبلغ من بلغ منها مدينـة القسطنطينية بسبب خفارتها للقوافل الذاهبة من الشرق اليها والى بلاد الروم ، وتيسر فيما نرى لجماعة من الـكلبيين أن يعبروا من هذه الجهات الى الاندلس بعد غلبة العرب والمسلمين على جهات من بحر الروم .

ويدعي بعض علماء طبقات الارض ان سواحل بحر الروم كانت ممتدة الى بادية السماوة ، محدودة بسلسلة الهضاب الرملية بين الجوف والديار النجدية الى الهضاب الرملية التي نطلق عليها الآن كلمة (النفوذ) .

وقد أقام الروم بين دمشق وتدمر ، وبين تدمر والفرات اثنين وخمسين حصناً او قلعة بين كل مرحلة واخرى مسافة ثلاث ساعات حفظاً للأمن وتفادياً من عبث البادية .

واذا بحثنا عن اسباب تقدم تدمر وبلوغها ذروة العمران في عهد سيطرة الروم عليها وجدنا لذلك سببين :

الأول — مرور القوافل واقامتها بها مدة .

الثاني — شهرة التدمريين دون سواهم في قيادة القوافل في المفاوز والبوادي ، ومنها مفاوز بادية السماوة ، وكانت من اهم طرق المواصلات .

وقد شبهوا هذه الحاضرة - اي تدمر - بمرفأ امين على ساحل بحر البادية ترسو عندها القوافل . وقد اقيمت الاعمدة والعلامات للدلالة على الطرق بين تدمر وشواطيء الفرات

رواد السماوة

خالد بن الوليد ، المتنبي ، السمعاني

١ — خالد بن الوليد :

مرّت بنا كلمة موجزة عن رحلة خالد بن الوليد من العراق إلى الشام عن طريق بادية السماوة ، وها نحن نعود إلى استيفاء هذا البحث على قدر الامكان .

لا شك أن أوّل قائد او صحابي فاتح أقدم على قطع بادية السماوة من الشرق إلى الغرب هو خالد بن الوليد المخزومي فاتح اليمامة والحيرة في أوائل العقد الثاني من الهجرة ، وكان المسلمون المجاهدون وقائدهم أبو عبيدة بن الجرّاح في الشام بحاجة إلى نجدة عاجلة كنجدة خالد لهم ، وقد اصبحت هذه الرحلة النادرة حديث الأجيال يتوارثها الخلف عن السلف إلى عصرنا هذا في جهات الحيرة والكوفة ، ولا ننسى نوادر المعمرين من مشايخنا الذين كانوا يتحدثون إلينا في مجالس النجف وأندية الكوفة عن أقصر طريق بين الكوفة والشام ، وانّ من يريد قطعها لا يحتاج إلى أكثر من خمسة أيام حتى كانوا يصوّرونها لنا ايماءً الى الغرب أو الى ناحية الشام . نقول: لا شك ان هذه النوادر والاحاديث الممتعة كانت تستند في أصلها إلى رحلة خالد بن الوليد هذه من الحيرة بلد المناذرة إلى الشام ثم إلى رحلات القفول التي أصبحت تتردد بين الكوفة والشام رأساً في صدر الاسلام ، وعلى عهد الراشدين ، وهي طريق البادية السالكة

بين القطرين في ذلك الحين ، وعلى كل حال فان خالداً فوّز من أحد المواضع على حدود السماوة في العراق الى مواضع تقابلها في الجهة الأخرى من الشام ، ويستفاد من رجز شعري شايع صوّر قائله هذه الرحلة أنها بدأت من ماء من مياه المفازة في الشرق يسمى « قراقر » وانتهت إلى ماء يسمى « سوى » في الجانب الآخر من المفازة ، وأن هذين الماءين كليهما من مياه قبيلة كلب وأن خالداً قطع المسافة بين قراقر وسوى في خمسة أيام .

قبيلة طي في هذه الرحلة :

ومما أجمع عليه المؤرخون في هذه الرحلة ان خالداً اعتمد فيها على دليل يقال له « رافع الطائي » وليست هذه أول رحلة لخالد بن الوليد يعتمد فيها على خبرة دليله الطائي والواقع أنه من قدامى الأدلاء أو الخبراء بمجاهل البوادي ومياهها الذين اعتمد عليهم ابن الوليد في أوائل زحفه على اليمامة ثم على الشرق فالعراق ، كما اعتمد عليه بعد ذلك في قطع مجاهل السماوة ، وقد اشتد الاحتياج فيما نرى إلى هؤلاء الأدلاء والخبراء بطرق البوادي ومياهها خلال تدفق الجيوش الاسلامية على اليمامة والعراق ، وعلى بادية المصرين البصرة والكوفة ، وعلى بادية السماوة بعد ذلك ، ويستفاد من أخبار زحوف المسلمين على العراق أنهم عنوا اذ ذاك باتخاذ هؤلاء الادلاء او الخبراء في طرق البادية ، كما فعل المثنى ابن حارثة ، وعدي بن حاتم الطائي [1] .

هذا وفي حاجة خالد إلى خبرة دليله رافع الطائي برهان على المخاوف التي تنطوي عليها هذه الرحلة ، وعلى أن مجاهل هذه البادية أعني بادية السماوة كانت غريبة بالنسبة إلى خالد وصحبه ، وأن مواقع المياه فيها غامضة مجهولة ، والواقع أن المياه لم تكن مجهولة فقط بل كانت مفقودة في قلب السماوة ، ولا بد للقفول المترددة في هذه البادية من التزود بكمية من الماء تسد حاجة الجيش خيلاً ورجالاً ، ومما أجمعت عليه الروايات ايضاً في رحلة السماوة أن الضرورة ـ ولا يخفى أنها تفتق الحيلة ـ قد ألجأت خالد بن

---

(١) تاريخ الطبري (١/٤٠٠) .

الوليد في سبيل التزود بحاجته من الماء إلى حفظه في اكراش رواحله ، وذلك أنه طلب عشرين جزوراً سقاها الماء ، وجعل من اكراشها مزاود له ، فكان ينحر في كل مرحلة من تلك المراحل الخمس عدداً من هذه الركائب للتموّن بما في اكراشها من الماء ، إلى هذا وما إليه مما يحتمل النقاش جداً اذ أن اكراش عشرين جزوراً كما ورد في النصوص بل أضعافها ملئت ماءً لا تكفي جيشاً كجيش خالد مهما كان عدده في مدة كتلك المدة ، ومما لا شك فيه فيما نرى أن عدداً غير قليل من الفرسان والهجّانة في هذا الجيش الغازي كانت لهم مزاود ماء خاصة جرت عادتهم باتخاذها ، وإن لم تصرّح الروايات بذلك فهي لا تخلو من غموض او قصور على كل حال ، ومن رأينا إذا صححنا الروايات بحذافيرها ان حفظ خالد الماء على تلك الصورة ، وفي اكراش الرواحل ليس اكثر من مجرّد احتياط .

دفع أوهام :

ولا بد لنا من القول إن سرد المؤرخين لماجريات هذه الرحلة من مبدئها في الحيرة إلى دمشق يُوهم أنها استغرقت مدة خمسة أيام فقط ، وهذا غير صحيح بل غير ممكن ، والصحيح أن المسافة المعنيّة في هذه الرحلة هي المسافة بين قراقر وسوى ، وليس بين الكوفة والشام . وقد انتهت الرحلة من قراقر بسوى في الجانب الآخر من الشام ، وحسبنا أن نحتكم إلى قول الراجز .

فوز من قراقر إلى سوى خمساً إذا ماسارها الجيش بكى

ولا ذكر في هذ الرجز كما لا يخفى للحيرة ودمشق . وهذه المسافة بين قراقر وسوى يستطيع الجيش الغازي المجد قطعها في خمسة أيام، ويحتاج الجيش قبل ذلك للوصول إلى قراقر من الحيرة إلى مسيرة ايام اخرى ، وإلى الوصول من سوى إلى دمشق إلى مسيرة يومين على أقل تقدير كما دلت تجربتي على ذلك. فمجموع المدة التي استغرقتها الرحلة من الحيرة إلى دمشق تتراوح بين عشرة ايام الى اثني عشر يوماً ، ولا يمكن أن تكون خمسة أيام فقط ، وهذه المدة أعني اثني عشر يوماً ليست قليلة لقطع تلك المسافة من قبل الجيش المذكور، ولا ينبغي أن تثير دهشة المؤرخين ، وموضع الدهشة في رحلة خالد هذه يكمن في قطع المفازة بجيش كبير معتمداً

على الخيل مضافاً إلى الهجن مع فقدان المناهل والمياه فيها على الغالب ، ولا غنى للخيل ولا للجيش عن كمية كبيرة من المياه في مثل هذه الرحلة .

طرق شتى :

ولا بد لنا من القول ان طرق المفازة المذكورة بين العراق والشام متعــددة تختلف باختلاف مواقعها من القطرين ، فمنها ما يبدأ من اقصى الجنوب فيها، ومنها ما يبدأ من الوسط ومنها ما يبدأ من الشمال ، ولـكل طريق عدد معين من المراحل ، وقد ورد ذكرها مفصلاً في كتب المؤلفين في البلدان والتاريخ ، فمن تلك الطرق طريق تبدأ من بادية البصرة ، وأخرى من بادية الـكوفة ، وثالثة من بادية عين التمر ، وطريق رابعة تبدأ من الأنبار ، هذا مضافاً الى مسالك أخرى تسـلك في بادية السماوة من أعالي الفرات الى الشـام ، ويلاحظ ان أقوال المؤرخين تضاربت في تعيين أي طريق من هذه الطرق سلـكه أو فوّز منه خالد فانهم لم يتفقوا على تحديد نقطة البداية والنهاية فيها ، وإذا علمنا ان خالداً وهو في سبيل نجـدته لجيش المسلمين في الشام لامناص له من سـلوك اقصر الطرق رجحنا أنه اخذ طريق الحيرة ماراً بعيون الطف غربي النجف ، ومن هذه العيون « الرهيمة » « الرحبة » ، « القطقطانة » ، «عين صيد» ، «عين جمل» وبعدها « الحياضيّة » ، وهي عيون معروفة في الغالب بأسمائها هذه إلى الآن خصوصاً لدى النجفيين ،بل هي على الاكثر من جملة ضياع النجفيين وأملاكهم ، ومن هناك سار خالد معرجاً على عـين التمر الى « قراقر » على الأرجح ، وهي ـ اي قراقر ـ من مياه كلب في الجانب الشرقي او العراقي من السماوة ، وهناك رواية تاريخية تشير الى أن خالداً فوز من قاعدته في الحيرة إلى « الجوف » او « وادي السرحان» وهذه الجهات كلها تعد من بلاد كلب في ذلك الحين ثم عطف على « قراقر » ومنهـا فوّز الى « سوى » وهي رواية مرجوحـــة ، والأرجح أن خالداً خرج من الحيرة الى عين التمر ثم ســـار منها الى مياه قراقر ، ومن هذه المياه فوّز إلى « سوى » رأساً ، وهذا لاينفي غزو خالد « لوادي القرى » و « الجوف » وفتح « دومة الجندل » وما الى ذلك في غزاة له وقعت في غير هذا التاريخ .

رحلة المتنبي في السماوة ومقصورته في وصفها :

قام ابو الطيب المتنبي سنة ٣٥١ برحلة خطيرة من مصر الى الكوفة قطع فيها مسافات شاسعة فاخترق اولاً بادية سيناء او صحراء (التيه) ، وثانياً بادية السماوة خرج اليها من التيه ، وكان الباعث على رحلته ما ساوره من الملل والسأم وخيبة الآمال في القاهرة وفي اميرها كافور خاصة .

لم يسلك ابو الطيب في رحلته هذه تلك السبل المألوفة التي تسلكها القفول ، وانما اختار طرقاً غامضة مجهولة في العادة لا يسلكها ولا يغامر فيها إلا قلة من خبراء البوادي والقفار ، او كما قال عنه احد المعنيين بسيرته « سار على الحلل والاحياء والمفاوز المجاهيل والمياه الاواجن » ولهذه العلة اختلف من اختلف اليه من هواة الاسفار والرحلات ليحفظوا عنه اسماء المنازل والمناهل في رحلته المذكورة .

ويحسن بمن يعنيه الاطلاع على مفصل رحلة المتنبي هذه ان يرجع الى شروح ديوانه مطبوعة ومخطوطة ، ومنها شرح المعري ، وشرح ابن جني ثم الى ديوان الشاعر نفسه ، ففي شعر المتنبي وصف للبادية والبدو ، وهو شاعر لا يجارى في الفن المذكور . هذا وفيما يلي اسماء المراحل في رحلته بين القاهرة والكوفة .

اولاً — في صحراء سيناء :

نَجْهُ الطير ، الديثة ، نخل ، النقاب ، النقع وهو من بادية معن وسنبس ، تربان منزلة فيها ماء يعرف بغرندل ، حسمى ، (وصلها بعد مسيرة يوم وليلة من تربان) وهي ارض جبلية فيها جبال ملساء كثيرة العشب والنبات ، وتكون باديتها مسيرة ثلاثة ايام في يومين يعرفها من رآها بأنها لا مثيل لها في الدنيا ، ومن جبالها جبل يقال له أرم ، تزعم اهل البادية ان فيه كروماً وصنوبراً ، وللمتنبي قصة طريفة في بادية حسمى مع بدوها ، ويقال انه اقام شهراً في حسمى ، وله فيها وفي اهلها شعر مثبت في ديوانه ، وفي مادة حسمى هذه من معجم البلدان للحموي بحث ممتع ذكر فيه موقعها وحدودها ، واورد ما قاله المتنبي عنها في الرحلة . هذا ومن يتصفح معجم ياقوت يتضح له ان رحلة المتنبي ومقصورته من جملة مآخذه في البحث عن المواضع والمياه بين القاهرة والكوفة .

ثانياً — في بادية السماوة :

وانتقل المتنبي من حسمى الى بادية السماوة ، واوّل مراحله « البياض » ومن البياض الى « رأس الصيوان » وانحرف منه الى دومة الجندل ، ثم المنازل الآتية ، حدر الكفاف ، البويرة بعد ثلاث ليال ، بسيطة وهي ارض تقرب من الكوفة .

بسيطة مهلاً سقيت القطارا   تركت عيون عبيدي حيارى

فظنوا النعام عليك النخيل   وظنوا الصوار عليك المنارا

فامسك صحبي بأكوارهم   وقد قصد الضحك فيهم وجارا

وورد « العقدة » ، وسقى بالجراوي ، واجتاز بالاضارع فبات فيها ، وسار الى « اعكش » حتى نزل الرهيمة ، ودخل الكوفة ، وفي الكوفة انشأ مقصورته وضمنها اسماء المراحل المذكورة .

نبذة عن المتنبي :

ولد ابو الطيب المتنبي في الكوفة . وعشيرته ـ وهي كندة ـ من اشهر عشائرها . وفي الكوفة يومئذ مجمع الأئمة والعلماء بفنون اللغة العربية ، وقد شدا ما شدا منها في فترة الشباب ، ومن الكوفة انتقل ابو الطيب الى الشام مواظباً على الدرس في كنف دولة بني حمدان دولة الشعر والأدب ، وعلى رأسها الأمير المجاهد سيف الدولة ، وفي هذا الوطن العربي الجديد جاشت قريحته وانطلقت بديهته فاستوحى احداث الدولة الحمدانية ووقائعها مع الروم من جهة ، ومع قبائل السماوة من جهة اخرى ، وكانت شمائل بني حمدان واريحيتهم وعروبتهم وجهادهم واكبارهم للادب وشغفهم بالشعر ، نقول كانت من أجل مصادر الهامه في ارقى طبقة من اشعاره ، فالمتنبي اذن شاعر عربي النجار والمربى ، عربي الروح ، بل هو الى أن يكون بدوياً او اعرابياً في بعض احواله ، وفي ثورته وصرامته ، واحتقاره للترف وتنويهه بالبدو والبداوة اقرب من أن يكون شيئاً آخر .

وطّن المتنبي نفسه على تحمل الاذى والاعتقال في مناهضته لبعض اساليب الحكم

في عصره ، وقصته في خروجه من (سلمية) وهي مدينة شامية تقع على طرف بادية السماوة الى بادية كلب هناك مأثورة، ودعواه العريضة في البادية معروفة، حتى خرج اليه اميرُ حمص وقاتله ، وشرّد من كان معه من كلب وغيرها من قبائل العرب ، وحُبس الرجل ثم استتيب وافرج عنه .

ومما كان يتحدث به ابو الطيب الى قبائل السماوة انه خلق مشاءاً عارفاً بالفلوات وبمواقع المياه يسير سيراً لا غاية بعده من حلّة الى اخرى وبينهما مسيرة خمسة ايام كأن الارض تطوى له ، واحبّ شيء الى البدو والبادية هذه الاحاديث ، واليها فيما نرى ثقة من وثق به ، وايمان من آمن بدعوته الغريبة – اذا صحّت – ، وثورة من ثار بسببها من قبائل السماوة على الاكثر .

ولا يخامرنا ادنى شك بان المتنبي كان خبيراً بأمزجة البدو واهواء النفوس في البادية، ولا ينكر ذلك على من له خبرته الواسعة بطبايع الناس واسرار الحياة البشرية من جهة عامة ، وشعره من اقوى الادلة على ذلك ، وقد حاول بعضهم انكار هذا الضرب من معرفة المتنبي باحوال البادية ، ومواقع المياه والمناهل فيها وما الى ذلك، ولكنهم لم يدلوا بحجة مقنعة. وفي شعر المتنبي كما لا يخفى ما فيه من الدلالة القاطعة على شغفه بالحياة البدوية والتنويه بمزايا البادية ، ومقصورته التي وصف بها رحلته المذكورة ، وسمّى فيها تلك المنازل والمناهل معروفة ، وقد تضمنت هجاءً مراً لكافور ، وفيما يلي قطعة من هذه المقصورة :

الا كل ماشية الخيزلى	فدى كل ماشية الهيدبى [1]
وكل نجاة بُجاويّة	خنوف وما بي حسن المشى
ولكنهن حبال الحياة	وكيد العداة وميط الاذى

(١) الهيذبى رويت بالذال المعجمة والدال المهملة ، وهي مشيه فيها سرعة .

صربت بها « التيه » ضرب القهار — اما لهـذا واما لـذا
اذا فزعت قـدمتها الجياد — وبيض السيوف وسمر القنا
فمرت « بنخل » وفي ركبها — عن العالمين وعنه غنى
وامست تخبرنـا « بالنقاب » — ووادي المياه ووادي القرى
وقلنا لها « اين ارض العراق » — فقالت ونحن « بتربان » ها
وهبت « بحسمي » هبوب الدبور — مستقبلاتٍ مهبّ الصبا
روامي « الكفاف وكبدالوهاد » — وجار « البويرة » وادي الغضا
وجابت « بسيطة » جوب الرداء — بين النعـام وبين المها
الى « عقدة الجوف » حتى شفت — بماء « الجراوي » بعض الصدى
ولاح لها « صَوَرَ » والصباح — ولاح « الشغور » لها والضحى
ومسّى الجميعي دئداؤها — وغادى « الأضارع » ثم الدنا
فيا لك ليلاً على « اعكش » — احمّ البلاد خفيّ الصوى
وردنا « الرهيمة » في جوزه — وباقيه أكثر مما مضى
فلما أنخنا ركزنا الرماح — بين مكارمنا والعلى
وبتنا نقبل أسيافنا — ونمسحها من دماء العدى
لتعلم مصر ومن بالعراق — ومن بالعواصم اني الفتى

ومن محاسن فيها :

وكل طريق اتاه الفتى — على قدر الرجل فيه الخطا
ومن جهلت نفسه قدره — رأى غيره منه ما لا يرى

مغامرات المتنبي :

ولا بد لنا من القول ان سيرة المتنبي شبيهة بسيرة مغامر او مقامر ، غامر بحياته في اكثر من رحلة قام بها في البوادي الشاسعة ، ولنا ان نقول انه دوّخ بادية السماوة وجاب آفاقها ، واسهم مع الامير سيف الدولة بن حمدان في خروجه من حلب الى قتال بدو السماوة ، وهم عشائر ضخمة .

وللمتنبي في وقائع سيف الدولة ببادية السماوة سنة ٣٥١ قصائد تعد من عيون شعره ذكر فيها المياه والمناهل والمنازل والخطط في القسم الشمالي من تلك البادية .

ولايخفى انديوان ابي الطيب المتنبي نشر مراراً ، على أن طبعة الديوان سنة ١٣٦٣ هـ في القاهرة تميزت فيما تميزت به بفصول او مقدمات او مصطلحات انشأها الشاعر نفسه ، وفي هذه المقدمات تفاصيل لا توجد في مكان آخر عن بادية السماوة ، ووقائع سيف الدولة فيها وردت فيها اسماء المياه والمناهل واسماء القبائل الثائرة في بادية حلب ودمشق ، وهي غير اسماء المناهل والمياه والقبائل الواردة في مقصورته المتقدمة ، ومن ذلك ما اسماه المتنبي هناك « طف السماوة » ويستفاد من هذا ان طف السماوة أي ما اشرف منها على الريف طويل كالسماوة نفسها يمتد من طفوف الكوفة وكربلاء في العراق الى طف حلب والشام ، ومعنى ذلك ان المتنبي استوفى ذكر مناهل السماوة ومياهها في شعره او في رحلاته ، ولم يفته ذكر ما كان منها في الجنوب أي بين البلقاء او بين دمشق والكوفة - كما رأيت - او تلك المناهل والمنازل الواقعة الى الشمال والغرب ، في بوادي حلب ودمشق وحمص وسلمية .

قال في قصيدته التي اولها :

بغيرك راعياً عبث الذئاب ... وغيرك صارماً ثلم الضراب

منها

وتملك انفس الثقلين طراً ... فكيف تحوز انفسها كلاب

طلبتهم على « الامواه » حتى | تخوف ان تفتشه السحاب
وتسأل عنهم « الفلوات » حتى | اجابك بعضها وهم الجواب
وقد خذلت ابو بكر بنيها | وخاذلها قريظ والضباب
ترفق ايها المولى عليهم | فان الرفق بالجاني عتاب
وما جهلت اياديك « البوادي » | ولكن ربما خفي الصواب
ولو غير الامير غزا كلاباً | ثناه عن شموسهم ضباب

ومن ذلك قصيدته التي قالها في واقعة خطيرة ظفر فيها سيف الدولة بقبائل كثيرة ثارت عليه في بادية السماوة ، ومهّد المتنبي لهذه القصيدة بمقدمة ضافية وردت فيها جملة من اسماء المياه وركايا بادية السماوة، ومطلع القصيدة :

تذكرت ما بين العذيب وبارق | مجرّ عوالينا ومجرى السوابق

منها :

برأي من انقادت «عقيل» الى الردى؟ | واشمات مخلوق واسخاط خالق
فليت ابا الهيجا يرى خلف «تدمر» | طوال العوالي في طوال السمالق
وسوق « علي » من معد وغيرها | قبائل لا تعطي القفيّ لسائق
توهمها الاعراب سورة « مترف » | تذكره البيداء ظل السرادق
فذكرتهم بالماء ساعة غبّرت | (سماوة كلب) في انوف الحزائق

ومما قاله ابو الطيب في هذه الوقعة التي لم يشهدها فشرحها له سيف الدولة وسأله ان يصفها :

طوال قناً ، تُطاعنُا قصار | وقطرك في ندىً ووغىً بحار
وكان بنو كلاب حيث كعب | فخافوا ان يصيروا حيث صاروا
ومروا (بالجباة) يضم فيها | كلا الجيشين من نقع ازار

وجاؤا «الصحصحان» بلا سروج | وقـد سقط العمامة والخمار
وارهقت العـذارى مردفات | واوطئت الاصيبية الصغار
وقد نزح (الغوير) فلا غوير | و(نهيا) و(البييضة) و(الجفار)
وليس بغير « تدمر » مستغاث | وتدمر كاسمهـا لهم دمار
اذا فاتوا الرماح تناولتهم | بارماح من العطش القفار
يرون الموت قداماً وخلفاً | فيختارون والموت اضطرار
اذا سلك « السماوة » غير هادٍ | فقتلاهم لعينيه منار
ومال بها على ارك وعُرض | واهل الرقتين لهـا مزار
واجفل بالفرات بنو نمير | وزأرهم الذي زأروا خُوار
فهم حزق على الخابور صرعى | بهم من شرب غيرهم خمار

السمعاني الرحالة

رحلته في طلب الحديث ، زيارة العراق ، السمعاني مع بدو السماوة

أبو سعيد عبد الكريم بن محمد بن منصور بن محمد بن عبد الجبار التميمي النيسابوري مصنف كتاب الأنساب (٥٣٧ ـ ٦١٤) محدث رحالة غرّب، وشرق في طلب العلم والحديث ، فمن جهة المشرق وصل الى ديار السغد والترك ، وفي ضمن ذلك بلاد ما وراء النهر وسمرقند وبخارى، وزار بعد هذا خراسان عدة مرات ، والري وأصفهان وبلاد الجبال ، أما من جهة الغرب فإنه شد الرحال من مرو إلى العراق والموصل والجزيرة والشام طلباً للعلم والرواية ويستفاد من تصفح كتابه المعروف بالأنساب انه زار عدا بغداد والبصرة والكوفة التي قصدها ـ أعني الكوفة ـ خمس مرات ، — تكريت وباجسرى [١] القريبة من بعقوبة

(١) تسمى « باجسرى » الآن « ابو جسرة » .

وتلعفر والرقة والأبلّة والانبار متحملاً في هذه الرحلة عن عدد طائل من العلماء والمحدثين .

سلك السمعاني في سفره من بغداد إلى الشام طريق الموصل والجزيرة وحلب على أنه عاد من تلك البلاد إلى العراق بطريق ثانية هي «بادية السماوة» ، وتفصيل ذلك كما يتضح لمن يعنى بدراسة كتاب الأنساب دراسة دقيقة انه بارح دمشق آخذاً الطريق منها إلى « القريتين » ثم إلى « تدمر » ومن تدمر فوّز إلى « كبيسة » ومن كبيسة اتجه إلى الفرات في جهات هيت والرمادي والفلوجة ثم إلى « دممّا » وهي القرية العراقية او الفراتية التي خرج اليها من البادية وهو لا يصدق ـ كامثاله ـ أنه نجا بجلده من تلك المفازة .

قبائل السماوة في عصر السمعاني :

خفاجة ، عبادة ، غزية ، اليسار

ويلاحظ أن السمعاني اختار التفويز إلى العراق في القسم الشمالي من المفازة ، وهو يبعد بمسافة عن سمت الطريق الذي فوّز منه كاتب هذه الكلمة من ضمير فالسبع بيار إلى « الگعرة» ثم الى حوران ثم إلى ريف الفلوجة ، هذا وفي تضاعيف رحلة السمعاني هذه طرائف ممتعة عن بدو السماوة وباديتها في ذلك الحين ، وعن بعض رفقائه من البدو في الرحلة ، ومنهم صاحبه او خفيره « ابو زيد الخفاجي » وقد روى عن الخفير المذكور نبذة من أشعارهم البدوية ، ومن قبائل بادية السماوة في منتصف القرن السادس اي في عصر السمعاني قبيلة « خفاجة » و « عبادة » و « غزية » و « اليسار » ، ولا يخفي أن هذه القبائل تقطن هذا اليوم في العراق ، فخفاجة واليسار من قبائل الحلة ، و « غزية » و « عبادة» وجمهرة خفاجة من قبائل المنتفق والبصرة . ومعنى هذا ان كتاب الانساب للسمعاني من المآخذ التي يحسن الرجوع اليها في موضوع البحث عن حركة القبائل المذكورة في حلها وترحالها ، وعن هجرتها او اقامتها واستقرارها بين العراق وبادية السماوة .

كلب في عصر السمعاني :

ويلاحظ كذلك ان السمعاني أغفل قبيلة كلب ، مع انها القبيلة التي تضاف اليها السماوة ، ولا نظن تلك البادية كانت خالية منها في عصره وان فقدت سيطرتها وسعوتها القديمة ، ومردّ ذلك على ما أظن إلى أن عصر السمعاني هو العصر الذي بدأت فيه هجرة بعض بطون كلب من السماوة إلى الغرب او إلى ارياف الشام وشرق الأردن وفلسطين، او الى المنطقة الشمالية من الديار الحجازية في جهات « الوجه » و « العلا » فاننا رأينا في هذه الجهات عند وصولنا اليها بقطار الحجاز سنة ١٩٢٠ قبائل عدة لم تضبط أصولها او أنسابها ، ومنها « الحويطات » و « الشرارات » و « هيثم » إلى غير ذلك ، وقد جوّز بعض الباحثين ان تكون في اصلها من بقايا كلب او قضاعة، وان كانت أدلة من يرى هذا الرأي غير قاطعة ، هذا وفي بحث السمعاني عن القبائل المذكورة فوائد طريفة نوردها على الطريقة الآتية :

خفاجة :

قال السمعاني في مادة « الخفاجي » من كتاب الأنساب ، هذه النسبة إلى « خفاجة » وهو اسم امرأة ، هكذا ذكره لي «أبو زيد الخفاجي» ولها أولاد كثر، وهم يسكنون بنواحي الكوفة ، وكان أبو زيد يقول يركب منا على الخيل أكثر من ثلاثين ألف فارس سوى المشاة ، وقال السمعاني بعد ذلك : لقيت منهم — يعني من خفاجة — جماعة وصحبتهم ، ويستفاد منه ان « خفاجة » كانت في عصر السمعاني وما اليه اي في المائة السابعة من جملة قبائل بادية السماوة والكوفة ، وفي كتب التاريخ والرحلات شواهد غير قليلة على ذلك ، ولا شك ان هذه القبيلة هجرت البادية بعد عصر السمعاني الى ارياف الفرات واستقرت على ضفاف الانهار ، ولا يخفى أن كثرة خفاجة الآن تقيم في المنتفق أو بين الشطرة والناصرية ، وهي أفخاذ عدّة تعنى كلها بالزراعة ، ومن خفاجة فريق اخر يقيمون قرب الحلة على شاطئ الفرات ويتعاطون الزراعة كذلك ، ومن هذه القبيلة أيضاً أفخاذ متفرقة في انحاء

العراق ، هذا وانما وجدت خفاجة فانها القبيلة التي محافظ على أنسابها وعلى سجاياها العربية .

كبيسة :

- في مادة « الكبيسي » من كتاب الأنساب للسمعاني أنها نسبة إلى « كبيسة » بلد على طرف « برية السماوة » على أربعة فراسخ من « هيت » مما يلي الفرات ، قال الرحالة المذكور نزلت بها وبت بها ليلة في منصرفي من الشام وكتبت بها عن جماعة من أهلها يعني المحدثين .

غزية . عبادة . :

قال السمعاني في مادة « الغزوي » « غزية » قبيلة كثيرة العدد ، قال لي أبو زيد الخفاجي في بادية السماوة : نحن — يعني خفاجة — أكثر خيلاً وفرساً وغزية أكثر عدداً ورجالاً وعبادة أكثر جملاً وبعيراً ، فاما غزية وظني أنهـا حوالي نجد فصحبني بدوي منهم يقال له « طعّان الغزوي » وكان خفيراً منهم في بادية السماوة ، وعلقت عنه شيئاً من الشعر .

وقال السمعاني في مادة « العبادي » عبادة حي من العرب كثير عددهم نزلوا على جانب الفرات ، سمعت أبا زيد الخفاجي في « برية السماوة » ، وقلت له : أي العرب أكثر؟ فقال: نحن أكثر خيلاً ، وعبادة أكثر جملاً وغزية اكثر رجلاً ، وقال : يركب من قبيلتنا خفاجة ستون الف فارس .

دمما ..

قال السمعاني في نسـبه : « الدميّ » ، « دمّـا » بكسر الدال المهملة وفتح الميم المشدّدة هذه النسبة إلى « دمّـا » وهي قرية كبيرة عند الفلوجة على الفرات دخلتها في رحلتي إلى الأنبار ، ثم دخلتها عند خروجي من السماوة ينسب اليها بعض المحدثين ، هـذا ما جاء عن « دمّـا » في كتاب الأنسـاب ، ويستفاد منه أنها قريـة من القرى الواقعة بين «الرمادي» والفلوجة ، وكل هذه القرى الثلاثة اعني الأنبار ، دمّا ، الفلوجة تنزل عليها القفول القادمة من برية السماوة او الخارجة من العراق إلى البادية المذكورة حتى اليوم .

قال ياقوت الحموي : « دمّـا » قرية كبيرة على الفرات قرب بغداد عند الفلوجة ينسب اليها جماعة من أهل الحديث .

رحلة في بادية السماوة

المرحلة الأولى

من دمشق الى ضمير . المطاري النجفي . رواد التجارة العراقية . رواد السماوة

الاربعاء ١٤ صفر سنة ١٣٣٩ ـ ٢٧ تشرين الاول سنة ١٩٢٠

في صباحه سافرنا من دمشق الى (ضمير) في مركبة تجرها الخيول انا وبعض الرفاق العراقيين، وكان في تشييعنا الى ظاهر دمشق بعض الاصدقاء من الدمشقيين. وقد وصلنا الى (ضمير) بعد مسير ست ساعات. وهنا كان الملتقى برجال القفول المسافرة الى العراق في بادية السماوة، وهي المفازة التي تفصل بين مشارف الشام وارياف العراق. بارحنا دمشق ـ بعد ان سلخنا فيها وفي غيرها من حواضر الشام سنة كاملة ـ وكان ذلك في فصل من اطيب الفصول ألا وهو الخريف، والخريف هو الربيع الثاني في دمشق، واذا قالوا لبعض حواضر العراق «أم الربيعين»، ونعم ما قالوا، فالاجمل ان يقولوا إن فصول السنة كلها ربيع في الشام، والخريف أوفق الفصول للقيام بمثل هذه الرحلة على ظهور الجمال النجيبة لأن بادية السماوة لا تعتسف في فصل الصيف أو في فصل الشتاء إلا من قبل أهلها الموغلين في البداوة، وذلك لفقدان الحلل والمنازل وكثرة المجاهل في البادية المذكورة، وفي الفصل المذكور الذي تركنا فيه دمشق كانت الحياة تسري في تربة البلاد سريان الروح في العروق، وكنا ونحن نسير في البلد نرى النبات ينجم على غير ساق بين قطع المرمر والرخام في أعالي الشرفات والأسوار

أو في ثنايا العقود والازاج ، ولم نر حتى الآن تربة أمرع من تربة دمشق ولا عشباً أندى ولا أكثر طراوة أو نضارة من عشب المروج الشامية ، وهكذا قل في الزروع وفي كثير من الغروس في كورة دمشق وفي الغوطة .

المكاري النجفي ، رواد التجارة العراقية في الديار النجدية

وكان مكارينا ـ أي الشخص الذي اكرانا رواحله من دمشق الى بغداد ـ نجفياً اسمه (حسن هادي ادريس) من اسرة تتعاطى التجارة وقد تخلقت باخلاق الاعراب واصطنعت عادات ابناء البادية حتى اصهر آل ادريس الى فخذ من شمر وتآخى القوم مع القوم فكان لهم ما لشمر وعليهم ماعليهم وذلك بحكم النظم البدوية والعصبية القبلية ، وان شئت فقل بحكم الخلق العربي الذي اشتهر بالوفاء وحفظ الذمام، وقدعرف هذا المكاري النجفي واخوانه بمضائهم ونشاطهم وميلهم الى الكدح وحب التجارة والتمرس بالاسفار فحصلوا من هذه الناحية على ثروة لا بأس بها في تلك الأيام .

ولم ينفرد آل ادريس وحدهم بهذه الخصلة من بين النجفيين فقد عرف النجفيون ببعد الهمة في الترحال والاقدام على الاغتراب وهم من ابعد الناس نجعة في المكاسب والتجارات ، شهد بذلك لهم من زارهم من الرحالين وفي مقدمتهم ابن بطوطة ، وأنا اعرف أسراً من أبناء النجف تغربت عن العراق في سبيل التجارة وامتزجت بابناء نجد باديها وحاضرها وذلك بحكم الجوار وبسبب المهنة أو الاصهار الى القوم ورأيناهم يحذون حذو البدو في أزيائهم وعاداتهم ولهجاتهم وقد مضى على بعض هذه الأسر في ذلك أكثر من قرن وكان بعضهم مقربين من أمراء « الرشيد » ، ولاينكر المنصفون من النجديين أثر هؤلاء التجار العراقيين في بلدة (حايل) وما اليها ،وذلك من النواحي العمرانية والاقتصادية ، وعلى الاجمال كان النجفيون في (حايل)وما اليها محور الحركة التجارية وكان لهم ربض خاص في حايل قاعدة الامارة وذلك قبل

اضطرارهم الى مبارحة الديار النجدية في أواخر أيام « الرشيد » بسبب جفاء بعض النجديين ، ولا شك في ان خسارة حايل كانت فادحة بسبب هذا الجلاء ، كما لا نشك في ان امراء « السعود » لا يحبذون مثل تلك المعاملة الجافية .

رواد السماوة

شاهدنا على مرحلتين من عاصمة الشام اثنتين من السيارات الجديدة الثمينة غارزة في كثيب من الرمل ولم نهتد الى السبب الذي من اجله جاءت هذه السيارات المهجورة الى البادية . ولم يكن استعمال السيارات معروفاً في هذا الصقع ، والغالب ان الغرض منها سبر الطريق بين العراق والشام في السماوة ، وذلك لاول مرة . وكان هذا على حساب رواد هذه البادية من التجار والمستعمرين الاوربيين ، وقد افلحوا بعد ذلك كما لا يخفى في الاهتداء الى الطريق المطلوبة . هذا والطريق بين ضواحي دمشق وضمير سهل منبسط على الأكثر تحده من الغرب جبال الشام ومن الشرق بادية السماوة ولم نجد في هذه الطريق أثراً لبلدة . اللهم الا بلدة (دومه) الواقعة على محاذاة الطريق المذكورة من الغرب ، وتكثر في ضواحي دومه بساتين الكروم ويعدونها من قرى الغوطة . ويخترق ضميراً جدول أو نهير صغير ينحدر اليها من الجبال الغربية . وليس في هذه القرية بساتين ولا اشجار ، وجبالها القريبة منها جرداء ولكن السهل بينها وبين دمشق معشوشب اخضر فيه مروج ترعاها الماشية وتمرج فيها الانعام .

ضمير في كتب الانساب والبلدان

قال السمعاني (١) : « الضميري » هذه النسبة إلى « ضمير » وهي قرية وحصن في آخر دمشق مما يلي أرض السماوة . واياها عنى المتنبي بقوله :

---

(١) كتاب الانساب (الورقة ٣٦٢) .

لئن تركنا ضميراً عن ميامننا ليحدثن لمن ودعتهم نــدم

وقال بعض المتأخرين :

بين عــذرى وضمير عرب مأمن الخايف فيهم . ما جنى

كلما شنت عليهم غارة اغمدوا البيض وسلوا الأعينا

وذكر ضميراً ياقوت قائلا : « ضمير مصغر موضع قرب دمشق قيل هو قرية وحصن في آخر حدود دمشق مما يلي السماوة » قال عبد الله بن قيس الرقيات :

اقفرت منهم الفراديس فالغو طة ذات القرى وذات الظلال

فضمير فالماطــرون فحورا ن فقفار بسابس اطلال

وهــذه المواضع كلها بدمشق ، وورد ذكرها في شــعر للفرزدق [1] وممن ذكرها الأمير أسامة بن منقذ وقد نزل بها ســنة ٥٣٠ في طريقه لدفع الدمشقيين عن صاحب بعلبك [2] .

ولم يشاهد ياقوت ضميراً هذه مع انه من ابناء الشام كما انه رحالة مشهور . بل عوّل على نقل أقوال الرواة من علماء البلدان فيها كما يظهر من قوله (قيل هو قرية وحصن) الى آخر ما قال . هذا ولم نبت في ضمير بل بتنا في مطمأن تحيط به الجبال المجاورة للقرية من جهتها الغربية وكان ذلك مخافة اللصوص الذين لا تخلو منهم هذه الجهات ، وعلى كل حال فان ضميراً كما شاهدناها في ذلك الحين ليست أكثر من قرية بدوية صغيرة وبيوت طينية يغلب على سكانها مظاهر الفقر والاعواز .

---

(١) معجم البلدان ٣ — ٤٨١ من طبعة الثانية .

(٢) كتاب الاعتبار لاسامة بن منقذ ص ١٠٠ من طبعة جامعة برنستون .

المرحلة الثانية

من ضمير الى الصيقل . مال الرولا . الطريق بين المنزلين . دمشق اجمة

الخميس ١٥ صفر سنة ١٣٣٩ ـ ٢٨ تشرين الاول سنة ١٩٢٠

في صباحه رحلنا من ضمير وكانت قافلتنا تتألف من نحو مائتي راحلة أو ذلول موقرة بضائع وسلعاً مرسلة من تجار دمشق الى التجار في نجد والعراق. وشاهدنا الصحراء في ضواحي ضمير من ناحية الشمال وقد حشر فيها مال «الرولا» ومال القوم جمالهم. وهذا المال من الكثرة بحيث يخال لك أن سيلا دافقاً من الجمال غمر صحراء الشام، وكلها جمال صحيحة بدينة . و «الرولا» فخذ مشهور من افخاذ عنزة واميرهم نوري الشعلان . ولجمال القوم وخيلهم الاصيلة شهرة في البادية وهم من اكثر بطون عنزة ماشية وجمالا وأوفرهم راغية وثاغية وكانت حلل القوم ـ جمع حلة وهي الحي النزول او الجماعة من البيوت العربية ـ بعيدة فلم نشاهدها في الطريق . ولما امسى المساء نزلنا في مكان يسميه العرب (الصيقل) ، والغالب انه اسم حديث أو مرتجل ولم يرد في معجم البلدان لياقوت . وكنا نسير النهار كله شوطاً واحداً لا ننزل إلا للغداء في نحو ساعة أو أقل ثم نقتعد غوارب رواحلنا لمتابعة السير . هذا هو ديدن القفل في هذه الرحلة . وكانت الارض معشوشبة على مسافة مرحلة من ضمير وبعد ذلك لم نر إلا الرمال والتلال القاحلة ، وقد صدق من قال ان دمشق اجمة تحيط بها الصحراء .

المرحلة الثالثة

من الصيقل الى السبع بيار . أول المفازة . قلق الركبان

الجمعة ١٦ صفر سنة ١٣٣٩ ـ ٢٩ تشرين الاول سنة ١٩٢٠

وصلنا مساء هذا اليوم بعد رحلة طويلة الى مكان يسمى (السبع بيار) وذلك لنبيت فيه

ومنه يستقي البدو من بئرين اثنتين هناك لا من (سبع آبار)،وقد اطلق اسم (السبع بيار) على مكان آخر غير هذا المكان. قال ياقوت[1]: « السبع ناحية في فلسطين بين بيت المقدس والكرك فيه سبع آبار ، وسمي الموضع بذلك ، وكان ملكا لعمرو بن العاص اقام به لما اعتزل الناس » وا كثر الناس يروي هذا بفتح الباء قال أبو عمرو « اتت سليمان بن عبدالملك الخلافة وهو بالسبع » قال ياقوت هكذا ضبط بفتح الباء . هذا وقد بتنا في « السبع بيار » على قلق وذلك لان المنزل مظنة لغزو الغزاة من البادية . ومن هذا المكان فوّزنا (أي قطعنا مفازة لا ماء فيها مسافتها أربعة ايام) والكلمة أعني قولهم « فوزنا » بهذا المعنى عربية فصيحة يقال فوز بابله أي ركب بها المفازة . ولم نصل الى الماء إلا ضحى اليوم الخامس وهو ما يُقال له « الگمرة » بكاف فارسية ساكنة تبعاً للهجة الشائعة في البادية .

المرحلة الرابعة

من السبع بيار الى المفازة . الاتجاه الى الشرق

السبت ١٧ صفر سنة ١٣٣٩ ـ ٣٠ تشرين الاول سنة ١٩٢٠

وصلنا مساء هذا اليوم الى منزل في البرية لا ماء فيه يبعد احدى عشرة ساعة بسير الابل عن (السبع بيار) وذلك بعد أن سرنا قبل طلوع الشمس ، وبعد صلاة الصبح اتجهنا في مسيرنا من المنزل السابق أي من (السبع بيار) إلى جهة الشرق تماماً وكنا نتجه في سيرنا قبل ذلك شرقاً بشمال .

---

(١) معجم البلدان ٣ ـ ٣١ .

المرحلة الخامسة

من المفازة واليها . بدو الشمال وبدو الجنوب . صلاة العجمان . أشهر فرسان البادية
الاحد ١٨ صفر سنة ١٣٣٩ ـ ٢٣ تشرين الأول سنة ١٩٢٠

رحلنا قبيل الفجر ونزلنا عند صلاة العصر في برية لا ماء فيها وذلك في طريقنا الى ماء (الـگمرة) ولم نجد بدو الشمال أو بدو السماوة من مقيمي الصلاة وذلك على عكس اخوانهم بدو الجنوب أو بدو الديار النجدية فهم احرص ابناء الجزيرة على اقامـة الصلاة خصوصاً الصلاة الجامعة. وقد رافقت مرة قافلة كبيرة من العجمان وهم قبيلة ضخمة من قبائل (الاحساء) كان أحب شيء اليهم أداء فريضة الصلاة جماعة وقد حمدنا رفقة هؤلاء العجمان وذلك في رحلة سالفة من العراق إلى قلب الجزيرة العربية . وكانوا أهل فطنة وذكاء فطري عجيب قالوا لي مرة : انت اقرأ من في القافلة فعليك أن تؤمنا في الصلاة فلم يسعني إلا النزول على رغبة القوم. وكان اميرهم إذ ذاك (ضيدان بن حثلين) وهو من أشهر فرسان البادية وأنبل زعماء القبائل العربية في الجنوب على ما رأيناه .

العجمان وأمراؤهم من آل حثلين

وضيدان بن حثلين هذا هو الأمير ، وهو الخفير المسؤول عن قافلتنا ، وهو الحارس اليقظان إذا غلب النعاس على العيون وإذا مالت الأعناق على الأكوار ، فاذا انقطعت احدى الرواحل أوهامت في البرية نادانا بأعلى صوته « يا راعي الذلول الي غدت » ، يعني يا صاحب الراحلة الشاردة ، ولا يكف ضيـدان عن ندائه إلى أن تعود تلك الراحلة إلى الجادة ، فهو نموذج من نماذج الفتوة والفروسية ، وحسبنا أنه كان يمتطي في هذه الرحلة الشاقة صهوات الخيل لا غوارب الجمال ، ولا يخفى ما تحتاج اليه الخيل الأصيلة في مثل هذه الرحلات من عناية ورياضة بخلاف الجمل فالجمل كصاحبه البدوي قليل الكلفة ضئيل المؤونة ، وكان في نية ابن حثلين أن يهدي خيوله إلى شريف مكة غير أن أمير « حايل » ، وكنا ضيوفه عند الوصول الى هذه المدينة — أقنع أمير العجمان هذا بالمكث عنده وألا يتعدى حدود نجد

في هذه الرحلة ، وهكذا أصبحت تلك الخيول الأصيلة من نصيب ابن الرشيد أمير حايل ، ويدعى هذا الأمير « سعود بن عبد العزيز » وقد اجتمعنا به في دار امارته بحايل ، وكان في مقتبل عمره إذ ذاك ثم أنه قتل بعد ذلك بمدة قليلة ، وجاءنا خبر مقتله في العراق وذلك في أواخر سنة ١٣٣٨هـ ١٩٢٠ أو بعد ذلك بقليل ، قتله قريب له من آل الرشيد يدعى « محمد بن طلال » ، وقتل القاتل على الفور ، وقد كان سعود هذا آخر أمير من هذه الأسرة « أسرة الرشيد » وبمقتله انقرضت هذه الامارة النجدية . أما مدينة « حايل » فإنها تقع في الوادي الذي يطل عليه جبل « أجا » ، والبلدة بالغة الجمال والنظافة ، وطراز بنائها عربي ، ويحيط بها سور ذو أبراج وبساتين كثيرة ، ولا بد لنا من القول : إن صاحبنا ضيدان بن حثلين كان كما رأيناه منهوماً بالصيد يسير في طليعة قافلتنا ، وطالما سمعنا دوّي سلاحه في تلك الأودية السحيقة ثم يعود الى القافلة بصيده ويوزع أطايب لحومه على الجماعات ، وقد ذكرت بفتوّة الأمير ابن حثلين وشغفه بالصيد قول عبد الله بن الحسن وقد سأله أبو جعفر المنصور عن سبب تخلّف ولديه قائلاً في الاعتذار عنهما : « منهومان في الصيد » أما « العجمان » فانها أخطر قبائل الجنوب جنوب الجزيرة العربية ، ويتنقلون بين بادية الأحساء و « الهفوف » و « العقير » و « البحرين » حتى « الكويت » وقد رأيناهم واجتمعنا بهم وحمدنا صحبتهم في بادية الكويت ، ولهذه القبيلة ولزعمائها آل حثلين في تاريخ نجد الحديث ذكر غير قليل ، ولها وقايع مشهورة في أطراف الجزيرة مع آل سعود ، وقد ثار العجمان على ابن سعود وقتلوا أخاه سعداً سنة ١٣٣٣ ، هذا مع أن بين العجمان وآل سعود مصاهرة ، ويعتبر العجمان أو آل حثلين أخوالاً لجماعة من آل سعود يقال لهم « العرايف » ، ومن أشهر زعماء العجمان قبل صاحبنا ضيدان « راكان بن حثلين » ، وكان راكان في فترة من الزمن حليفاً لأمراء البحرين في خلافهم مع آل سعود . ومما يذكر في تاريخ نجد الحديث أن امرأة نجدية يقال لها « بنت العجمي » قتلت قاتل أبيها وهو ابن حثلين شيخ العجمان .

المرحلة السادسة

الى الولج . منازل لا أثر للحياة فيها

الاثنين ١٩ صفر سنة ١٣٣٩ ـ ١ تشرين الثاني سنة ١٩٢٠

سرنا في هذا اليوم عشر ساعات وكان رواحنا على منزل يسمى (الولج) وهو مثل الشعب أو الوادي الصغير في البرية بيد أنه رملة لا أثر للحياة ولا للماء فيها ولم يذكره ياقوت وإنما ذكر (الولج والولجة) على أنها مواضع في الحجاز والعراق والمغرب [١] ، والغالب أن الولج اسم قديم لهذا المكان . قال الفيروز آبادي : الولج الطريق في الرمل .

المرحلة السابعة

الرحيل من الولج . وادي صواب . وادي صويب . وادي الهري . مبيتنا فيه . وادي حنيفة وعلاقته بالسماوة

الثلاثاء ٢٠ صفر سنة ١٣٣٩ — ٢ تشرين الثاني سنة ١٩٢٠

رحلنا من الولج بعد صلاة الصبح ومررنا في طريقنا على كثير من الأودية والشعاب من جملتها وادي (صواب) و (صوّيب) واللفظتان على الأكثر من جملة الاعلام أو أسماء الأماكن المرتجلة عند المتأخرين من أهل البادية . والواديان المذكوران من أودية بادية السماوة ، ولا شك في أن قدماء البدو والعرب في الجاهلية وصدر الاسلام كانوا يعرفون هذه الأودية بغير هذه الاسماء . ووادي (صواب) و (صوّيب) من روافد وادي حنيفة الكبير كما قيل لنا أو كما يدعي العرب في بادية السماوة ولا يوجد لهذه الأسماء ذكر في كتب البلدان المعروفة ، ومن الأودية التي عبرناها هذا اليوم وادٍ يسمى (الهري) وكان رواحنا اليه في الساعة الحادية عشرة من هذا النهار وذلك بحسب المواقيت العربية . وكان مبيتنا فيه ، وليس في هذا الطريق الذي سلكناه من ضمير الى الولج أي من المرحلة الأولى

---

(١) معجم البلدان ٢ ـ ٣٠١ و ١ ـ ١٥١ و ٤ ـ ٩٢٩ من طبع المانية .

الى المرحلة السابعة أثر ظاهر ولا جبل عال وانما هو أرض مستوية تتخللها الأودية والأخاديد والوهاد منها الرملية اللينة ومنها الجلدة الصلبة وكلها جافة .

بحث بلدانى ، وادى حنيفة وعلاقته بالسماوة

قيل لنا في البادية ان«صواب» «وصويب» من روافد وادي حنيفة وهو قول يحتاج الى اثبات لأن وادي حنيفة أو وادي اليمامة هو أكبر الأودية في الديار النجدية الجنوبية،ومجراه بين اليمن والحجاز ثم يخترق الديار النجدية ، ويطلق على العارض وعلى اليمامة ، ومن مدنه «الرياض» قاعدة البلاد المذكورة الآن كما انه يسمى (يبرين) قرب « هجر » « والاحساء » وهو أغزر أودية نجد بالمياه . ولا بد لنا من القول إن « الرياض » اسم حديث لهذه المدينة النجدية الكبيرة ، وكانت تعرف باسم « حجر اليمامة » في عصور الجاهلية .

والخلاصة : يجيء هذا الوادي من جهات اليمن ويحاذي الحجاز ثم يخترق نجداً واليمامة ويسمى هنا وادي «الرمة» في العصور القديمة ووادي «حنيفة» الى أن يصل الى «الدهناء» وإلى بوادي هجر والاحساء ، طوله مسيرة شهرين ، وتسكنه أفناء القبائل العربية .

هذا ولما كانت اكثر بلاد العرب مفاوز مترامية الأطراف راق لأبنائها أن يوصلوا بين أطرافها المترامية وان يجعلوا من هذه الأودية أداة تربط بعض أجزائها ببعض ولو كان ذلك محالاً وتخريفاً في بعض الأحيان . ومن ذلك زعمهم ان الدهناء وهو واد كبير عرف بهذا الاسم في نجد ، اذا مرّ في بلاد بني اسد يسمونه (منعج) ثم في غطفان فيسمونه الرمة ثم في بلاد طي فيسمونه حايل ثم يمر ببلاد كلب فيسمونه قراقر ثم يمر في بلاد تغلب فيسمونه «سوى» واذا انتهى اليهم عطف الى بلاد كلب فيصير الى النيل[1] وقد رأينا نحن الدهناء في رحلة لنا قمنا بها سنة ١٣٣٧ — ١٩١٩ وهي وادٍ عظيم جداً يقع شرقي الجبال الرملية بمسافة قليلة ومنه تدخل القوافل في الجبال الرملية المذكورة المعروفة الآن على ألسنة البدو بالنفود .

(١) معجم البلدان ٢ — ٦٣٠ و ٦٣١ .

بحث في تسمية هذا الوادي

ولم يذكر لنا أحد سبب تسمية هذا الوادي (وادي حنيفة) ومن الجائز أن يكون منسوباً الى « بني حنيفة » رهط مسيلمة الكذاب ، وبنو حنيفة هؤلاء قبائل جاهلية قديمة من بكر بن وائل ومساكنهم في اليمامة . وفيها قاتلهم خالد بن الوليد وقتل مسيلمة الكذاب . كما هو مشروح في كتب السير والأخبار . ووادي حنيفة الذي ينسب الى هذه القبائل يشطر بلاد اليمامة الى شطرين وهو مشهور بخصبه وكثرة ما فيه من المياه والمزارع والبساتين وهو الى حدود اقليم « الخرج » لبني حنيفة .

المرحلة الثامنة

من الهري الى الكعره . تدفق السيول . البادية المعطرة . المناهل والمنازل في نجد والسماوة . استيفاء الأتاوة . الدهامشة من بطون عنزة

الأربعاء ٢١ صفر سنة ١٣٣٩ — ٣ تشرين الثاني سنة ١٩٢٠

رحلنا من (الهري) بعد صلاة الصبح نريد (القعرة) وبعد مسير ساعتين وصلنا الى مضيق أدانا الى وادٍ رهيب طويل تحدّه هضاب وجبال ذلك هو وادي (القعرة) أو (الكعرة) كما يلفظها البدو ، والقعرة في اصطلاح الاعراب مطمأن عميق بين هضاب أو كثبان مرتفعة لا يخلو أحياناً من الماء . وقاطعنا في نهاية هذا المضيق واد عريض جميل، ومما زاده جمالاً تدفق السيل اليه وفيضان الماء العذب الغزير فيه، وفي ذلك دليل على هطول أمطار عظيمة في البادية وقد اضطررنا الى التلبث قليلا إلى أن تيسّر لنا ولرواحلنا العبور من بعض المجاري الضحلة في الوادي المذكور وهذا أول مشهد جميل نشهده للسيول في بادية السماوة .

البادية المعطرة وأعشابها الحرة

وتكثر في وادي الكمرة الأنبتة الذكية الرائحة المشهورة في بلاد العرب ، ومن جملتها الشيح والقيصوم ، وكان عبيرها الفياح وأريجها الذكي يعطر الأرجاء وينعش الأرواح ، وتكثر هذه الأنبتة الذكية عادة في بعض الأودية النجدية الجنوبية ولم نعهد مثل هذه الأعشاب ولا مثل شذاها المتضوع في بادية السماوة إلا في هذا المكان ، ولا ننسى ان قافلة لنا عبرت أحد الأودية النجدية الجنوبيــة في طريقنا الى حايل من العراق وذلك في الهزيع الأول من الليل ففاحت في البيداء عطور فاغمة منعشة، وكان في الوادي كثير من هشيم الشيح والقيصوم وغيرها من الأعشاب الذكية ولو لا مناسم الإبل لم يشعر المسافرون بوجود هذه الأنبتة فقامت مناسم الابل مقام الآلات في سحق ذلك الهشيم وقد حمل شذاها الينا نسيم البادية . هذا ويوجد الشيح وكذلك القيصوم في بعض أودية التيه أي صحراء سينا .

المناهل والمنازل في نجد والسماوة

سرنا في ثنية الكمرة ثلاث ساعات ثم وصلنا الى الماء الذي كنا فقدناه من (السبع بيار) وقد مضى علينا بهذا اليوم أربعة أيام كاملة في بادية السماوة وذلك بعد منزلنا في السبع بيار لم ننزل خلالها على ماء ولا شاهدنا أثراً لبئر أو قليب كما كنا نتبرّض مما حملناه معنا من ماء السبع بيار ، وكان القلق يشتد بالقافلة يوماً بعد آخر لقلة الماء ، ولو لا اننا في فصل الخريف تنعم بنسيمه العليل في البادية لوقعنا في مأزق حرج ، فهذه المفازة يتعذر سلوكها في موسم الهواجر وأيام القيظ إلا على بعض أبنائها من البدو والأعراب ، ومن ذلك علمنا ان مواقع المياه في أواسط بادية السماوة نادرة جداً وان بين مناهلها مفاوز شاسعة أو مجاهل لا تسلك إلا مع ذوي الخبرة من الأدلاء أو الأعراب . وهذا هو شأن هذه البادية منذ

الأزل فهي بهذا تختلف الى حد ما عن بادية نجد المجاورة للسماوة من الجنوب وفيها طريق الحاج من العراق ، إذ هي ـ أعني بادية نجد ـ كثيرة المنازل متعددة المناهل في شتى الجهات .

الدهامشة

ولما خرجنا من الوادي استقبل قافلتنا بعض الفرسان الأشداء من العرب النازلين على (الكمرة) وكانوا يقصدون إيصال قافلتنا إلى الماء ، ولم تكن القافلة إلا بمثابة غنيمة باردة للقوم ، وكان في وسعهم نهبها لو لا من معنا من وجهاء عنزة ولو لا مارضخناهم به من اتاوة وغمرناهم به من نحلان ، وكان استقبال القوم للقافلة استقبال الواثق المطمئن من وصولنا الى حلتهم ونزولنا على حكمهم وهذا هو شأن القوم . لا تخفى على البدوي خافية من أمور القوافل والطرق التي يسلكها التجار غالباً . فأخبار القوافل في حلها وترحالها وفي الجهات التي تتجه اليها على طرف التمام من القوم وذلك لما لهم من عيون وأرصاد على حدود البادية أو أينما تقاطعت الطرق في داخلها . وأهل البادية كأهل مكة أدرى بشعابها وبعض البدو يسايرون القافلة من بعيد أو يراقبونها إلى أن تقع في الفخ الذي نصبه لها القوم ، ولا سلطة لغير البدوي في البادية فهي ملجؤه ومأواه بل هي وما فيها ملك القوم وميراثهم الذي انتقل اليهم من الآباء والأجداد وقد جبلوا ثراها بدمائهم وأفنتهم الوقائع والحروب فيها ، هذا على مايقاسونه فيها من بؤس ونكد في الحياة . وهؤلاء العرب النازلون على ماء الكمرة هم « الدهامشة » بطن معروف من أشهر بطون « العمارات » من عنزة ، أما رئيس الدهامشة فهو (جزاع بن مجلاد) وقد أخذوا على كل حمل بعير ثلاثة دنانير وأخذوا غير ذلك من السلاح والأمتعة التي حملها التجار من دمشق إلى نجد والعراق .

« لاهة والكمرة »

أمسى المساء علينا في هذا المنزل وبتنا على مقربة من حلة الشيخ جزاع بن مجلاد ، وليس في معجم البلدان ذكر لوادي الكمرة ، وقد جاء في مراصد الاطلاع : أن القمراء ـ تأنيث الأقمر ـ

اسم ماء أوبقعة ، ولم يزد على ذلك[١] ويقول أبناء البادية إن الـگمرة مشتى حسن من مشاتي السماوة وأكثر من يشتي به من عنزة « الاسبعة » و« الدهامشة » ، ويقولون مثل ذلك عن « لاهة » ولاهه على مايقول ياقوت[٢]: قارة بالسماوة، ولم نرها في هذه الطريق فلا بد أن تكون غير بعيدة عن الـگمرة ، ومن الجائز أن تكون « قارة لاهة والـگمرة » شيئاً واحداً، وقد نقل ياقوت في لاهة قصة غريبة عن الكهانة حدث بها المفضل بن سلمة .

المرحلة التاسعة

من حلة ابن مجلاد إلى العفايف . خرافات بدوية . الجن والغيلان . القارة والقمرة

الخميس ٢٢ صفر سنة ١٣٣٩ — ٤ تشرين الثاني سنة ١٩٢٠

رحلنا من مضارب الدهامشة أو من حلة ابن مجلاد في الساعة الثالثة والنصف نهاراً ونزلنا الساعة التاسعة بين (العفايف) و (الحلقوم) في طريق معشوشبة خضراء . اما (العفايف) فهي حزون وهضاب تقع على يمين المشرقين الى العراق . ويقول البدو ان العفايف مسكونة بالجن يسمعون غناءهم ونقرهم على الدفوف ولا يكادون يقاربونها بالنزول ، وهكذا فعلنا نحن فقد نزلنا بحيث نراها من بعيد وكان فينا رغبة في الوصول الى حزون العفايف وذلك للتأكد من دعوى البدو والوقوف على حقيقة زعمهم فيما يتعلق بتلك الأصوات المنبعثة من جوف الأرض ، ولكن لم يتيسر لنا ذلك لتشاؤم القفل من مقاربتها ، ويحسن فيما نرى التنقيب في هضاب العفايف على طريقة علمية حديثة وذلك من أجل الوقوف على حقيقة ما يدعيه الأعراب في هذه الجهات . هذا ونرجح ان لفظة «الـگمرة » كما يلفظها

(١) مراصد الاطلاع ٢ ـ ١٣٦ .

(٢) أنظر معجم البلدان ١ ـ ١٧٨ .

البدو محرفة عن «القارة» ، والقارة في اللغة وفي كلام البلدانيين تعني : الأكمة ، أو الحرّة وهي أرض ذات حجارة سود ، متفرقة خشنة . وفي معاجم البلدان العربية وفي مقدمتها معجم ياقوت الحموي بحوث عن هذه القارات .

أوهام العرب

وقد أذكرني منزلنا في العفايف وخرافات أصحابنا فيها بأوهام العرب الأولين في الجن والغيلان والسعلاة ، ومن ذلك قولهم : إنهم يسمعون عزيف الجن وتغول الغيلان كما قالوا إنهم يرون الجن ويخاطبونهم ويشاهدون الغيلان وربما تزوجوها ، وكان عمرو بن يربوع على زعمهم متولداً من السعلاة والانسان ، ويدعون ان للجن غراماً أو تعلقاً ببعض حيواناتهم ، قالوا : والإبل الحوشية منسوبة إلى الحوش وهي فحول جن ضربت في نعم بعضهم فنسبت اليها ، والحوش بلاد الجن من وراء « يبرين » لا يسكنها أحد من الناس . و« أبرق العزّاف» وهو جبل بالدهناء سمي بذلك لأنهم يسمعون به عزيف الجن ، وفي هذا الموضوع كتب مصنفة مثل «كتاب الجن » و « كتاب أخبار الجن وأشعارهم » وكلاهما لابن الكلبي ، وكانت بعض أحيائهم في الجاهلية تعبد الجان كما كان آخرون يعتقدون ان لهم تابعاً أي خادماً أو صاحباً من الجن يتحدث اليهم فيحدثهم بالكوائن وينبئهم بما يجري في مستقبل الأيام ، وقد أبطل الاسلام هذه الأوهام السخيفة ، وللعرب في ذلك أحاديث رائعة وقصص طريفة وأشعار :

أتوا ناري فقلت منون أنتم فقالوا الجن قلت عموا سلاما

وقد علل الجاحظ أوهام العرب في هذا الباب بوحدة القوم وعزلتهم في البوادي الموحشة واتساع أخيلتهم وسذاجة حياتهم ، يضاف إلى ذلك بطالة القوم وتعذر العمل عليهم وفقدان وسائل التسلية بين ظهرانيهم ، وهو كما ترى تعليل لطيف مرجعه ـ كما يرى الجاحظ ـ الى البيئة العربية ومرده الى الفراغ العظيم في حياة البادية .

هذا ولا ذكر للعفايف في كتب البلدان بهذا المعنى . أما الحلقوم فهو سهل منبسط تجاه

العفايف قال الابيوردي[١] : لبن هضبـــة حمراء في بلاد بني عمرو بن كلاب باعلى الحلقوم وليس من المؤكد ان الابيوردي قصد هذا المكان فليحقق ذلك من يعنى بهذا الموضوع .

المرحلة العاشرة

من العفايف الى الضايع والضويع . ليلة الضويع . وسائل الدفاع

الجمعة ٢٣ صفر سنة ١٣٣٩ — ٥ تشرين الثاني سنة ١٩٢٠

سرنا صباحاً من المنزل المتقدم ذكره ومررنا على هضاب ثم على واد يقال له (الضايع) ثم وصلنا الى واد آخر يقال له (الضويع) والكلمتان من الأعلام المرتجلة للأماكن المذكورة وكان مبيتنا في الوادي الأخير أعني (الضويع) وقد استحوذ علينا القلق في ليلة الضويع ولم تغمض لصحبنا عين حتى الصباح وذلك لاشتباهنا بغارة يشنها علينا جيش من البدو الغزاة ، ومن عادة القوافل التي تقطع البوادي إذا توقعت شراً أو بوغتت بغزو أن تنتظم في شكل دائرة تامة يحيط بها أحمال البضائع وبعدها الرواحل والجمال يكمن خلفها الرجال بأسلحتهم كما يكمن الجنود في خنادقهم متأهبين للطوارىء ، وهكذا فعلنا نحن في تلك الليلة وكنا نطلق النار بكثرة على أشباح وهمية ، وما أكثر الأشباح في آفاق الصحراء . ولما أصبح الصباح ظهر لنا أننا كنا نطلق النار على كلب تائه أظل أهله وراح يتبع آثار القافلة .

المرحلة الحادية عشرة

من الضويع الى حوران . مناظر رائعة . آبار السقيا . بدو الصليب على الماء .

شراذم العصلبة . من الوادي الى البرية

السبت ٢٤ صفر سنة ١٣٣٩ — ٦ تشرين الثاني سنة ١٩٢٠

رحلنا من الضويع بعد صلاة الصبح ووصلنا الى وادي (حوران) في الساعة الخامسة

---

(١) انظر معجم البلدان ١ـ٢٤٩ طبع المانية .

والثلث ، والمناظر في وادي حوران رائعة جداً. وفي الوادي هضاب وجبال شاهقة تتكون من صخور سوداء أو صخور ملونة عظيمة . وسرنا بعد ان استقينا وسقينا رواحلنا من مكان يسمى (محيور) وهو أعمق مكان في بطن الوادي فيه آبار عذبة . وقد سبقتنا إليها جماعة من(الصليب) ولما رأوا قافلتنا تنحوا لها عن الماء بدون طلب منا، ولا تخلو بادية السماوة من شراذم«الصلبة» ، ومنهم قوم يقال لهم آل «طرفة» وكان مسيرنا من حوران بعد الظهر فأصعدنا في مضيق وعر صعب المرتقى و نفذنا منه الى برية فسيحة وفضاء طلق طابت به نفوسنا وهو مكان يسميه البدو (معيشر) وفيه كان (معشانا) كما يقول البدو أو متعشانا كما ينبغي أن يقال ويقصدون بمعشاهم المكان الذي ينزلونه لأجل تناول العشاء والمبيت فيه كما أنهم يقولون (المضحّى) بالتضعيف للمكان ينزلونه عند الضحى . وكان العرب الفصحاء والمستعربون القدماء يستعملون لتأدية هذا المعنى كلمة (المغدى) و (المراح) فالمغدى منزلهم في الغداة والمراح منزلهم أو منزل ركبانهم في المساء ، وأصله من غدو الرعاة ورواحهم بماشيتهم ، وفي الآية الكريمة « ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون » .

المرحلة الثانية عشرة

الأحد ٢٥ صفر سنة ١٩٣٩ — ٧ تشرين الثاني سنة ١٩٢٠

سرنا من (معيشر) بعد صلاة الصبح ونزلنا مساء في مكان يدعى (الفريدة) يلفظها البدو بالتشديد ومررنا في منتصف الطريق على وادي (الغامق) .

المرحلة الثالثة عشرة

الاثنين ٢٦ صفر سنة ١٣٣٩ — ٨ تشرين الثاني سنة ١٩٢٠

سرنا صباحاً من (الفريدة) ومررنا عند الظهر على وادٍ يسمى (اربيان) وطالعنا العصر حلة (ابن ظبيان) من(السويلمات) وهؤلاء السويلمات «والمحينات» الآتي ذكرهم فرعان من فروع الدهامشة ولكنهم مسالمون مطيعون للشيخ فهد بن هذال ثم جزناهم الى

حلة (المحينات) من القوم ونزلنا عندهم ومعنا كبيرهم (محمد الماضي) وهو من جملة رفاقنا في القافلة منذ أول خروجها من الشام . وبقيت هذه الالفة والصداقة الوثيقة بيني وبين « محمد الماضي » مدة طويلة بعد السكون في العراق . كان يزورني ويتفقدني من حين إلى آخر ، وكان السبب الأول والأخير في ذلك مجرّد تعارفنا على بساط البادية الذهبي ، وهذه صورة جميلة من صور الوفاء عند أبناء البادية وعادة اجتماعية حميدة من عاداتهم ، ولا تكاد توجد عند غيرهم من الأقوام ، وما أكثر أصدقاء صاحبنا محمد الماضي من أبناء العراق والشام ونجد والسماوة ، وحواضر الأقطار العربية .

المرحلة الرابعة عشرة

الثلاثاء ٢٧ صفر سنة ١٣٢٩ — ٩ تشرين الثاني سنة ١٩٢٠

في صباح هذا اليوم انقسمت قافلتنا الى فريقين فريق (عقيل) النجديين غادرونا الى الجنوب ووجهتهم الديار النجدية وبقينا نحن عند (المحينات) وفي ضيافتهم وذهبت رواحلنا الى الماء ودعينا عشاء الى بيت (غازي) أحد زعماء (المحينات) وكانت معي بندقية جيدة اشتراها النجديون ودفعنا ثمنها أجرة لخفارة القافلة من قبل هؤلاء النجديين ، وهؤلاء الخفراء يتقاضون أجوراً كبيرة لقاء خفارة القوافل في البادية ، وكان معنا خفير شمري يخفر قافلتنا من شمر وخفراء مختلفون من عنزة ، ويحق لكل فرد من أفراد القبيلة تخفير القوافل ولا يشترط أن يكون الخفير زعيماً معروفاً أو من أسرة فيها زعامة القبيلة وان كان ذلك مرغوباً فيه ، ويمنح الخفراء مكافأة غير قليلة في بادية السماوة ويبالغ القوم في اكرامهم وقد جمعنا في أول مرحلة من مراحلنا من الشام ستمائة دينار (ذهبا) لسد أجور الخفراء ثم ظهر لنا أن هذه المبالغ غير كافية ، والواقع أنها غير كثيرة أيضاً بالنظر الى قيمة البضائع وكثرة الأموال التي تحملها القافلة .

٢٨ صفر سنة ١٣٣٩ – ١٠ تشرين الثاني سنة ١٩٣٠

أمضينا هذا اليوم أيضاً عند (المحينات) وقد اعتذر الينا زعمـــاء القوم عما أسموه تقصيراً في الضيافة وذلك لأن مواشيهم كانت تنتجع الكلأ في أماكن بعيدة ، وكانوا يقدمون لنا جفان الثريد أو الرز مكللة بلحوم الأرانب وقد أصبنا من هذه اللحوم ونحن لا نعرف أنها لحوم أرانب لأننا في العراق لا نستمرىء هذه المطاعم بل نعاف هذه اللحوم وكان لحم الأرانب البرية شبيهاً بلحم الفراخ كما كانت أمراقها مماثلة لامراق الدواجن المذكورة .

آداب المآكل في البادية :

دعينا الى تناول طعام العشاء بعد المغرب وقد أرخى الظلام سدوله على بيوت القوم وغاب العرب المضيفون عنا ساعة ، وأطفأوا الضياء كل ذلك حرصاً على حرية أضيافهم ساعة تناول الطعام ، وهذه هي عادة قبيلة عنزة وقد توجد عند غيرهم من أحياء العرب ، وهؤلاء القوم على ما هم عليه من صعلكة وفاقة تنم ملامحهم عن شرف ونجابة وتشعر حركاتهم بنجدة وشهامة وتدل أقوالهم على حكمة وحصافة .

الموقدون بليل نار بادية لا يحضرون وفقد العز في الحضر

ومما لاحظناه أن رفاقنا من بدو وعرب كانوا يتحلقون حلقات كبيرة في كل منزل نزلنا فيه وكل حلقة منهم مغتبطة فرحة بما لديها من إعداد مأكل أو تحضير قهوة كما كانوا يقطعون شطراً من وقتهم بالتحدث عن ماجريات البادية قديمها وحديثها أو في انشاد قطع من الأشعار البدوية .

حماسة أميرة بدوية :

أنشدني خفيرنا الشمري للأميرة منيرة بنت عبد العزيز الرشيد أمير حايل ترثي أباها وتذكر بعض حروبه ووقائعه ، وهو مشهور بكثرة المغازي والحروب .

مرحوم صبح الاثنين مـــداد	خذه ثمان سنين بس العـــلام
يا ما حلا وجا من الشرق تنتين	معهن بشاير لحمود بيهن سلام
من عكب أبويا حايل ما بهـــا خير	يذكر على السبعان[1] ورد الامام
يا متعب وحذرك من الربع لادنين	الـكل يبغي فتخة بها رشـــام
يا متعب رح بشمر واوفوا الدين	شمّر أهـــل ردات يوم الزحام

وقد لفتني رفيق لي في هذه الرحلة وهو من كبار الضباط العراقيين ومن صنف أركان الحرب الى حلقة تحلّق فيها البدو وهم مغرقون في الضحك ممعنون في تعاطي النـكت مغتبطون بما هم عليه ، وكان هذا شأنهم منذ رافقناهم الى أن فارقناهم ، قال لي هـذا الرفيق وهو ممن ضرسته الأحداث وحنكته التجارب تاركة في ملامحه آثاراً لا تزول : ألا يطيف الهم يوماً بقلوب أبناء البادية ، ألا يتألمون كما نتـألم ، أليس في نمط حيـاتهم ما يبعث على الفـكر أو يشغل البال عن هذا المرح والدعابة ؟ ثم أجاب الرفيق نفسه قائلاً : كلا إن الحياة عند القوم هي حياة الفطرة ، إن نمطهم في الحياة يختلف عن نمط حياتنا في بلاد الحضـارة فأبناء البادية لا يعرفون ما يعرفه أبناء الحواضر من هموم ولا يحملون ما نحمله نحن من أعبائها الثقيلة ومطالبها الـكثيرة ، وقد أصاب الرفيق فيما قال فان الـسكينة والهدوء صفتان لازمتان للمعيشة في البادية . أما في الحاضرة فلا مَفرّ من الصخب والضوضاء .

---

(١) السبعان واد أو قرية من قرى حايل ، وتلفظ كلمة السبعان في البادية على زنة عمان على انها تضبط في كتب البلدان واللغة بفتح الاول وضم الثاني وتلفظ بصيغة التثنية التي مفردها (سبع) وما كان السبعان الذي رأيناه — وهو على قيد مرحلة واحدة من مدينة حايل شرقاً — أكثر من واد صغير قليل الماء خال من السكان ولـكنهم في البادية يقولون السبعان بلد عامر بالنخل والزرع ويعدونه من جملة قرى حايل الى الجنوب ، وقد حوصرت بلدة السبعان هـذه في زحف السعوديين على هذا الاقليم لاستخلاصه من آل الرشيد حتى اضطر اهلها الى التسليم .

المرحلة السادسة عشرة

الخميس ٢٩ صفر ١٣٣٩ — ١١ تشرين الثاني سنة ١٩٢٠

سرنا من حلّه (المحينات) بعد الطلوع ومررنا في الساعة السابعة على واد كبير هو وادي (الغدف) ووجدنا فيه بقايا ماء السيول فشربت الابل وأخذنا حاجتنا من «الاحساء» احتفرها البدو . والغدف لغة : الخصب والنعمة والسعة . وقد وجدناه والحق يقال من أخصب الأودية في بادية السماوة . ولا ذكر لهذا الوادي في معجم البلدان . ويقع وادي الغدف بموجب بعض المصورات الجغرافية الحديثة [١] في بادية عمان بينها وبين وادي السرحان ، هذا وبين الغدفين مسافة بعيدة فلعله واد آخر وما أكثر المشتركات في أسماء اللغة العربية .

وهذا الوادي يصب في مكان يدعى (الفيضة) على مسافة أربع ساعات من (الرمادي) والفيضة مزرعة للشيخ فهد بن هذال على ما قال لنا الأعراب وقد أمسى علينا المساء في البرّية بين بيوت حيّ من أحياء عنزة .

المرحلة السابعة عشرة

الجمعة ١ ربيع الأول سنة ١٣٣٩ ـ ١٢ تشرين الثاني سنة ١٩٢٠

سرنا من منزلنا امس بعد صلاة الفجر ونزلنا في الساعة الثامنة دون (الهبارية) و (السيح) منزل الشيخ فهد بن هذال وقد خفّ اليه دليل قافلتنا (محمد الماضي) ليأخذ لقافلتنا وللاحمال التي للتجار معنا جوازاً بالدخول إلى العراق ، وهو أي ابن هذال يقوم بذلك في هذه البادية نيابة عن السلطة العسكرية المحتلة في العراق ، وفهد شيخ من مشايخ العمارات وهم فخذ معروف من الخاذ وايل ، ووايل بطن من بطون عنزة والقوم اعني العمارات بجميع فروعهم عراقيون من حيث الجنسية وذلك من قديم الزمان ، أما الدهامشة الماضي ذكرهم فهم سعوديون ، وأما الرولا فهم سوريون .

---

(١) شرق الاردن من العصر الروماني الى العصر الحاضر للفريق فردريك بيك .

المرحلة الثامنة عشرة

السبت ٢ ربيع الأول سنة ١٣٣٩ ـ ١٣ تشرين الثاني سنة ١٩٢٠

عاد الينا محمد الماضي بالجواز فسرنا صباح اليوم وصلينا العصر في واد سرنا فيه بعد الصلاة ساعتين، ثم التجأنا مساء إلى لحف تشرف عليه هضبة عالية وهجم علينا ونحن في هذا اللحف نحو عشرة رجال من (الشاوية) وصوبوا الينا بنادقهم إلى أن وصلو إلى منزلنا فاستقبلهم دليل القافلة (محمد الماضي) فاطلقوا علينا بعض الطلقات ثم شرعوا يفتشون عن السلاح فلم يجدوا شيئاً وأخذوا ثلاث بندقيات اعادوها الينا بعد ذلك وقد تعشى هؤلاء الشاويةوباتوا عندناوطلبوا منا الرجوع ليلا إلى ابن هذال وأبرزنا لهم ما لدينا من الجوازات.

المرحلة التاسعة عشرة

الأحد ٣ ربيع الأول سنة ١٣٢٩ ـ ١٤ تشرين الثاني سنة ١٩٢٠

ازعجنا الشاوية صباح هذا اليوم ونحن في اللحف وقاسينا من صلفهم ما قاسيناه . هذا مع اننا نتخفر بابناء البادية من شمر وعنزة، بيد أن لهؤلاء الشاويةدالة كبيرة على ابن هذال شيخ القبيلة فان عشائره تمتار في مواسم معينة من اسواق المدن الفراتية بين النجف والمسيب، ولآل هذال مزرعة في لواء كربلاء اسمها « الرزازة » والكلمة في اصطلاح البادية تعني المزرعة التي تنتج الارز أو الرز ، وقد أصر (محمد الماضي) على الرواح إلى بيوت الشاوية فذهبنا ونزلنا تجاه منازلهم وبتنا عندهم ولم يضيفونا واشترينا منهم مؤونتنا من رز وتمر واسترجعنامنهم بندقية لنا، وكان مسيرنا هذين اليومين بل هذا الاسبوع مسير البادية تطلب الكلأ وتنتجع المراعي يوماً مشرقين وآخر مغربين وتارة إلى الجنوب وطوراً إلى الشمال استقصاء للاخبار وطلباً للمدينة الهادئة من مدن العراق، وذلك من بعد نشوب الثورة في البلاد .

الشاوية

وقد اتضح لنا بعد اختلاطنا بهؤلاء الشاوية انهم من نواحي الفرات في جهات « الهندية » ومن قبائل بني حسن في العراق ، وهم أي شاوية قضاء الهندية كشاوية ارياف الفرات الأوسط في كربلاء والمسيب والفلوجة والرمادي ينتجعون الكلأ لمواشيهم واغنامهم في بادية السماوة من قديم الزمان ويخرجون اليها بخفارة العمارات من قبائل عنزة عندما تهطل الامطار في البادية وذلك خلال فصل الخريف من كل عام ويمضي الشتاء كله على القوم في البادية ، ولا يعودون إلى أرياف العراق إلاّ في أواخر الربيع وذلك بعد تربية مواشيهم وانتاجها من غنم وشاء ، ومن ذلك قيل لهم (شاوية) أما شاوية الفرات الأدنى في اقاليم الديوانية والمنتفك والبصرة فهم ينتجعون الكلأ ويتبعون مساقط الامطار في البادية النجدية جنوب بادية السماوة وقد كان شاوية الجنوب في السنوات العشر الاخيرة عرضة لكثير من الاخطار الناجمة عن أوضاع بعض القبائل النجدية ، ونشاطها في الغزو وشن الغارات وقد منيت قبائل العراق لهذا السبب بخسائر لا تقدر في الارواح والاموال ، وهذا على عكس من يطلب النجعة من العراقيين في بادية السماوة ، ومهما كان الأمر فان ابناء الارياف العراقية القاطنين على شواطيء الفرات يستفيدون من هذه النجع البعيدة فوائد عظيمة جداً لا من حيث إنماء ثروتهم وانتاج ماشيتهم فقط بل من حيث استجمامهم واستعادة قوتهم ونشاطهم وصحتهم في ذلك الجو الهادىء المعتدل والسماء الصافية والمناخ اللطيف ، ولعل فائدتهم من هذه الناحية اعظم كل فائدة .

العرف البدوي

ولا يستطيع هؤلاء الشاوية أيّاً كانوا انتجاع مراعي البادية إلاّ بخفارة قبائلها البدوية وذلك ان عنزة مثلا تعتبر السماوة ملكا لها وترى الارتفاق بمراعيها حقاً من حقوقها

وحدها ولا يجوز المرور بها الا بأذن من القوم ،وهـــذا هو العرف البدوي المعمول به بينهم وبين الشاوية ، وكثير من البدو يعيشون على «التخفير » تخفير القوافل أو تخفير الشاوية

رفيق السفر ، الرفيق قبل الطريق

وقد انتهزنا هذه الفرصة فرصة الاقامة القصيرة بجوار هؤلاء الشاوية فعمدنا إلى اصلاح بعض شأننا وازاحة ما يحتاج إلى الازاحة من عللنا واستبدال ما خلق واتّسخ من ملابسنا واماطة بعض الاذى عن ابداننا، فقد كنا والحق يقال على شيء من بذاءة الهيئة وخشونة المظاهر، بيد اننا أكثر تجملا وألطف مظهراً من احسن ابناء البادية، والواقع اننا لم نشعر مدة هذه الرحلة الشاقة بحاجة شديدة إلى الاستحمام إلا عندما قاربنا أرياف العراق واصبحنا على مراحل معدودة من أرض السواد كأن ابداننا كانت تجتزىء بحمام الشمس أو تكتفي بجفاف التربة والمناخ، وهكذا بدأت انا اعتاد على هذا النمط من الحياة، وأما صاحبي فقد أدركه الملل وأسرع اليه السأم من طراز الحياة البدوية الخشنة وكانت تعتريه من حين إلى آخر ثورة عنيفة على البادية وسكانها وسالكي سبلها ولا يستريح إلا اذا أفرغ ما يفيض على لسانه من صيغ النقد والتجريح، وهذه الثورة كما ترى داء لاعلاج له عندي إلا الابتسام، وهو انجع دواء تعالج به هذا النوع من أنواع السأم والفراغ في الصحراء .

رياضة الصحراء

وكان أشق ما يشق على صاحبي ركوب «القعود» ـ والقعود من الإبل ما يتعمده صاحبه لقضاء حاجته ـ ولزوم القتب يوماً بعد آخر كأننا أحلاس اقتاب ، والحق أن قطع البادية على ظهور الجمال مشقة لايطيقها ابناء الحاضرة إلا نادراً أو عند ما تدعو الضرورة إلى ذلك خلافاً لأبناء البادية فان ركوب الإبل عندهم رياضة نافعة وقد جربت ذلك بنفسي في رحلة سابقة

قت بها من العراق الى نجد ثم الى الحجاز وذلك بطريق الصحراء ، وكنت أعاني في الثلاث الأولى من مراحل السفر ما يعانيه المدنف المصاب بكل عسو من اعضائه ثم مرنت بعدها على الركوب الطويل ، بل افادني ركوب النجائب صحة ونشاطاً لاعهد لي بها قط في العراق ، وعلى هذا يكون اقتعاد غوارب الإبل كامتطاء صهوات الجياد ضرباً من انفع ضروب الرياضة خصوصاً اذا طالت الرحلة ، وعلى كل لا اظن في مستطاع كل احد من ابناء الحاضرة ممارسة هذه الرياضة الا في مقتبل الشباب او نحو ذلك كما كنا اذ ذاك .

كان ركوب الخيل والنجائب من مظاهر الفتوة والفروسية الى عهد قريب في بلاد العرب . كما كانوا يتوفرون على انتاج احسن انواعها ويضبطون انسابها ضبطاً دقيقاً لذلك وقد قلت الآن عنايتهم بهذه الشؤون او زالت بالمرة في بعض الأقطار إلا لبعض الأغراض التجارية وذلك بسبب تطور فن النقل الآلي الحديث .

هذا ولا بد لي من القول بان صاحبي المذكور كان من جملة ابناء العراق الذين نشأوا في الاستانة واتموا دراستهم في معاهدها العلمية العالية وحصلوا على أرقى درجاتها العلمية في الفنون العسكرية ، وكثير من أبناء العراق — كما لا يخفى — ميالون إلى تحصيل هذه الفنون ، ولما انتهت الحرب العامة الأولى استدعى صاحبنا الى دمشق وفيها أقام الى أن انقرضت دولتها الهاشمية ، وكان من ارضى اصحابي اخلاقاً وألينهم عريكة وأوسعهم ثقافة ، ومن أبعد الناس عن مساوىء الحياة العسكرية المعروفة في بعض عصور الاتراك ، كما كان نموذجاً حسناً في جمال البزة والهندام فكيف لا يتبرم وقد اضطرته البادية إلى ركوب جمالها وتوسد رمالها ، كيف لا يثور على الصحراء وقد حرمته من محاسن الحضارة وباعدت بينه وبين الحياة الناعمة في دمشق أو في ردهات الفنادق الكبرى في الشام ، ومن جملة فنادقها التي كانت تجمعني وإياه احياناً فندق (فكتوريا) وفندق (خوام) وذلك للمداولة في شؤوننا العامة من عراقية وعربية ، ولنا في هذه الفنادق الجميلة

ذكريات حميدة ، هذا علاوة على منزله اللطيف في بعض منعطفات « الصالحية » ، والصالحية هي الحي الذي اطمأن كثير من العراقيين إلى السكنى فيه في تلك العهود السالفة ، وكان عدد هؤلاء العراقيين غير قليل ، وجلهم من بغداد وبعضهم من ابناء الموصل ، ولا مناص لي من القول بان ابناء دمشق كان قد دبّ إلى نفوسهم السأم وأخذوا يستهجنون سيرة بعض شباب العراق ومآتيهم في الشام وقد استثقلوا هذا (الاحتلال العراقي) ، كما كانوا يسمونه في بعض الاحيان ، ولا أراهم إلاّ على شيء من الحق في شكواهم من بعض القوم ، وعلى كل فانها عهود سلفت وأيام خلت وما اجملها من أيام .

عهد هوى كنا عهدناه يفنى اصطباري عند ذكراه

لا أنا أنساه فأسلو ولا تذكره أنت فترعاه

المرحلة العشرون

الاثنين ٤ ربيع الأول سنة ١٣٣٩ — ١٥ تشرين الثاني سنة ١٩٢٠

رحلنا صباح هذا اليوم من منزل هؤلاء الشاوية ووجهتنا (الفلوجة) وانضم الينا في أثناء الطريق اثنان من جماعة ابن هذال ومررنا في طريقنا على الشاوية والحمّارة ـ كما يحلو للبدو أن يسموهم ـ من أهل « المندية » على شواطيء الفرات ووصلنا في الساعة السابعة إلى (البوعيسى) من (الدليم) وقد أكرمونا وأهدوا الينا بعض الأغنام ، ويقال ان أصل « البوعيسى » هؤلاء من عرب الشام وهم ربيعة وليسوا من الدليم ، وهذا القول يفتقر الى حجة قاطعة ، وكان اتجاهنا إلى الشرق تماماً هذا اليوم .

المرحلة الحادية والعشرون

الثلاثاء ٥ ربيع الأول سنة ١٣٣٩ — ١٦ تشرين الثاني سنة ١٩٢٠

سرنا من (البوعيسى) ورافقنا شيخهم (صايل) ومررنا في طريقنا على وادي الكهف

(الجهف) وعلى أودية أخرى ، وقد أمسى المساء علينا ونحن على مقربة من (العصيبية) فصادفنا في الطريق عرباً من الدليم مع مواشيهم من غنم ودواب .

المرحلة الثانية والعشرون

الأربعاء ٦ ربيع الأول سنة ١٣٣٩ — ١٧ تشرين الثاني سنة ١٩٢٠

سرنا من متعشانا البارحة بعد صلاة الصبح ومررنا في الطريق على منخفضات أو وهاد كثيرة ، وهي منخفضات واسعة تكثر في الطفوف وبها تمتاز البادية الواقعة غربي الفرات ، ثم أشرفنا على (فيضة العصيبية) وهي مطمأن واسع تدفع فيه الأودية يزرعها ابن هذال على ما رواه لنا القوم وقاطعنا بعد ذلك الطريق الى الرمادي من (شفاثا) أو (عين التمر) وكان متعشانا في (عين الكبريت) في مطمأن سبخة من الأرض كثير نبات الطرفاء ، وهذا المكان يقع شمال (الرحالية) ويبعد عنها نحو ست ساعات ، وكان مبيتنا فيه .

المرحلة الثالثة والعشرون

الخميس ٧ ربيع الأول سنة ١٣٣٩ — ١٨ تشرين الثاني سنة ١٩٢٠

رحلنا من منزلنا السابق عند الطلوع ومررنا في طريقنا على واد يسمى (أبو فروخ) ونزلنا في الساعة السابعة في مكان يسمى (السحل) ، ومساحل الماء مسايله ، وفيه عين ماء لم أتمالك من الارتماس فيها لحاجتي الماسة إلى ذلك ، قال في معجم البلدان[1] السحيل ـ وهو في الأصل الغزل الذي لم يبرم ـ أرض الكوفة والشام . كان النعمان بن المنذر يحمي بها العشب لنجائبه ، ويكثر في هذا المكان أعني السحل شجر الغضا ومنه الوقود المشهور في العراق . والغضا هو واد في ديار نجد مررنا عليه في طريقنا إلى حايل قبل عامين يكثر فيه الشجر المذكور ، ومما قالوه في صفة الغضا أنه شجر يشبه الاثل إلا أن الأثل أكبر وأعظم

(١) ٣ — ٥٠ .

منه وحطبه من أجود الحطب وناره كذلك وأكثر ما ينبت في الرمال وهكذا رأيناه في البادية . ومن أبيات الشواهد التي حضرتنا في منزلنا بالغضا قول الشاعر :

فسقى الغضا والساكنيه وإنهم شبوه بين جوانحي وضلوعي

المرحلة الرابعة والعشرون

الجمعة ٨ ربيع الأول سنة ١٣٣٩ — ١٩ تشرين الثاني سنة ١٩٢٠

رحلنا من السحل بعد صلاة الصبح وطالعنا بعد ثلاث ساعات سواد الفرات ومناظر الوادي الحبيب وذلك من جهة الفلوجة ونزلنا بعد ساعتين على حلّة الشيخ (هراط البني) من مشايخ الدليم ، وعلى مقربة من نهاية سقي الفرات أو من السواد في تلك الناحية يقوم كثيبان عظيمان من الرمل من بينهما تسلك القوافل ولسان حالها يقول ها نحن (مفتاح الصحراء) أو (مفتاح السماوة) سماوة كلب ، وكان مبيتنا في مضارب شيخ الدليم المذكور وهو من العرب الأجواد .

المرحلة الخامسة والعشرون

السبت ٩ ربيع الأول سنة ١٣٣٩ — ٢٠ تشرين الثاني سنة ١٩٢٠

سرنا من مضارب الشيخ (هراط) عند الطلوع وقد كنا مللنا الركوب المتواصل أكثر من ثلاثة أسابيع وتقنا الى رياضة أبداننا بالمشي فسرنا مشياً على الأقدام ووصلنا الفلوجة بعد ساعتين وأمضينا بقية نهارنا فيها ، وكان مبيتنا أيضاً في الفلوجة .

المرحلة السادسة والعشرون

الأحد ١٠ ربيع الأول سنة ١٣٣٩ — ٢١ تشرين الثاني سنة ١٩٣٠

خرجنا من الفلوجة في طريقنا الى بغداد على مركبة يجرها جوادان ، وكان أثر الحرب

بين القبائل العراقية والبريطانيين ظاهراً على طول الطريق ، وقد شـــاهدنا خنادق القوم ومعاقلهم محاطة بالحواجز من اســلاك شائـكة وأكياس لا تحصى من الرمال ، وقد وصلنا بغداد في الساعة العاشرة حسب التوقيت العربي ومعنى ذلك اننا قطعنا المسافة بين الفلوجة وبغداد في نحو عشر ساعات ، ونحن نقطعها الآن في ساعة واحدة بالسيارة وبقينا متنكرين في عاصمة الرشيد عدة أيام لم يشعر بوجودنا الاخوان والأهل والأصحاب لأمر اقتضته المصلحة . أما صاحبي فقد بادر فور وصوله الى بغداد الى حانوت أحد المصورين وطلب اليه التقاط صورته بزيه البدوي الغريب ولحيته الـكثة ، وكانت في الواقع لحية هائلة لا يقل عمرها عن عمر هذه الرحلة الطويلة ، وقد أخبرني أن المصور استنكر هيأته وظنّ به الظنون ، وأخيراً التقط له تلك الصورة الغريبة وهي من الصور التي نحتفظ بها تذكاراً لتلك الرحلة السعيدة .

وألقت عصاها واستقر بها النوى ✽ كما قرّ عينا بالاياب المســـافر

محمد رضا الشبيبي

مراحل السفر فى السماوة على الهجين

الساعة غروبية

٢٧	تشرين الأول	١٩٢٠	تحركنا من الشام	٢	صباحاً
٢٧	»	»	وصلنا « ضمير »	٨ر٥	مساء
٢٨	»	»	من ضمير	١	صباحاً
٢٨	»	»	وصلنا « الصيقل »	١٠	مساء ، وهي أرض قفر
٢٩	»	»	من الصيقل		قبل طلوع الشمس بساعة
٢٩	»	»	وصلنا « السبع بيار »	١٠ر٤٥	مساء
٣٠	»	»	من السبع بيار	١١ر٤٥	صباحاً ، الساعة ٢ر٤٥ وجد سيارة محطمة
			وضعنا الرحال	١٠ر٣٠	
٣١	»	»	تحركنا	١١ر٢٠	صباحاً الساعة ٨ مررنا بين جبلين
			وضعنا الرحال	٩ر٢٠	مساء
١	تشرين الثاني		تحركنا	١٢	صباحا
١	»	»	نزلنا في « الولج »	١٠	مساء ، وهي أرض قفر
٢	»	»	تحركنا	١٢ر٣٠	صباحا
٢	»	»	وصلنا « صويب »	٤ر٣٠	
			نزلنا في « المري »	١١ر٢٠	مساء
٣	»	»	تحركنا	١٢ر١٥	صباحا

الساعة غروبية

٣	تشرين الثاني		نزلنا آبار « الـگمره » ـ الملص ـ	٦	ظهراً قرب عرب عنزه ، وهم يتحدثون عن مصير الثورة العراقية وانفضاض الثوار
٤	»	»	من الـگمره	١٥ر٣	صباحاً تأخرنا بسبب مطالب ابن مجلاد من القافلة ، وابن مجلاد رئيس فخذ من افخاذ عنزه يقال لهم « الدهامشة »
			نزلنا	٩	مساء قرب العفايف في الجنوب يوجد تحت الجبل بئر يقال لها الغري
٥	»	»	تحركنا	٢٠ر١٢	صباحا
			صعدنا هضبة	٤٥ر٦	
			قطعنا وادي الضايع	٩	
			نزلنا	١٠	مساء وبتنا في قلق خوف الغزو
٦	»	» ١٣٤٨	تحركنا	٢٠ر١٢	وتأهبنا للدفاع الى ان اتضح لنا بعد منتصف الليل اننا في مأمن من الغزاة
				٤	مررنا بين مجموعتين من الأحجار « رجمين » وارتاب القفل من نباح بعض الـكلاب السائبة وراء القافلة من بعيد
٦	»	»	وصلنا وادي حوران	٢٠ر٤	

التاريخ		الساعة غروبية	
		٥،١٥	نزلنا « محيور » وهي آبار في قلب الوادي المذكور ، شاهدنا بعض افراد « الصليب » يستقون منها ، وسرعان ما تركوا الماء للقافلة
	نزلنا « معيشر »	١٠،٣٠	
٧ تشرين الثاني	تحركنا من معيشر	١٢،٢٥	فارق القافلة شمالاً من رام الذهاب الى الكبيسة . أما نحن فواصلنا سيرنا الى الفلوجة ومررنا في طريقنا اليها على بيوت من « شاوية الدليم »

فهارس عامة

١ – فهرس محتويات الرحلة

الصفحة	الموضوعات
١	المرحلة الاولى (من دمشق الى ضمير . المكاري النجفي . رواد التجارة العراقية . رواد السماوة)
٣	ضمير في كتب الانساب والبلدان
٥	المرحلة الثانية (من ضمير الى الصيقل . مال الرولا . الطريق بين المنزلتين . دمشق اجمة)
٥	المرحلة الثالثة (من الصيقل الى السبع بيار . أول المفازة . قلق الركبان)
٦	المرحلة الرابعة (من السبع بيار الى المفازة . الاتجاه الى الشرق)
٧	المرحلة الخامسة (من المفازة واليها . بدو الشمال وبدو الجنوب . صلاة العجمان . أشهر فرسان البادية)
٧	العجمان وامراؤهم من آل حثلين
٩	المرحلة السادسة (الولج . منازل لا أثر للحياة فيها)
٩	المرحلة السابعة (الرحيل من الولج . وادي صواب . وادي صويب . وادي الهري)
١٠	بحث بلداني ، وادي حنيفة وعلاقته بالسماوة
١١	بحث في تسمية هذا الوادي
١١	المرحلة الثامنة (من الهري الى الكعرة . تدفق السيول . المناهل والمنازل في نجد والسماوة
١٢	البادية الممطرة واعشابها الحرة

٢ ـ فهرس الاعلام

٣ - فهرس القبائل والفرق والجماعات

٤ – فهرس البلدان والامكنة والبقاع

- ز -

- س -

- ش -

- ص -

ـ هـ ـ

ـ ي ـ

٥ - فهرس المآخذ والكتب

دحية : أ أ ، هـ هـ

مقامات الحريري : م

معجم البلدان للحموي : ل ، ع ، ص ، ج ج ، ل ل ، ٤ ، ٥ ، ٩ ، ١٠ ، ١٣ ، ١٤ ، ١٥ ، ١٦ ، ٢١ ، ٢٧

معجم الشعراء للمرزباني : لا

معجم ما استعجم : ط

— ن —

النبراس في خلفاء بني العباس لابن دحية : هـ هـ

— و —

الوفا للسمهودي : ض